

## سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ قسما ﴿ السَّمَاءِ ﴾ قسم، و﴿ الطَّارِقِ ﴾ قسم، والطارق: النجم، وقد بينه الله تعالى بقوله ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ (٢) النجم الثاقب، واختلف فيه؛ فقيل: هو زحل: الكوكب الذي في السماء السابعة؛ ذكره محمد بن الحسن في تفسيره، وذكر له أخبارا، الله أعلم بصحتها (١)، وقال ابن زيد: إنه الثريا (٢)، وعنه أيضا إنه زحل (٣)؛ وقاله الفراء: ابن عباس (٤): هو الجدي، وعنه أيضا وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - والفراء: النجم الثاقب: نجم في السماء السابعة، لا يسكنها غيره من النجوم؛ فإذا أخذت النجوم أمكتها من السماء، هبط فكان معها، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة، وهو زحل، فهو طارق حين ينزل، وطارق حين يصعد (٥)، وحكى الفراء: ثقب الطائر: إذا ارتفع وعلا، وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ قاعدا مع أبي طالب، فانحط نجم، فامتألت الأرض نورا، ففزع أبو طالب، وقال: أي شيء هذا؟ فقال: « هذا نجم رمي به، وهو آية من آيات الله » فعجب أبو طالب، ونزل ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ (٦)، وروى عن ابن عباس أيضا ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ قال: السماء وما يطرق فيها (٧)، وعن ابن عباس وعطاء (٨) الثاقب: الذي ترمي به الشياطين، فتأذة: هو عام في سائر النجوم؛ لأن طلوعها بليل، وكل من أتاك ليلا فهو طارق (٩)، قال:

ومثلك حبلِي قد طرقتِ ومرضعاً      فألهيتهَا عن ذي غمامٍ مغِيلِ

وقال:

ألم تريايني كلما جئتُ طارقاً      وجدت بها طيباً وإن لم تَطْلُبِ

فالطارق: النجم، اسم جنس، سمي بذلك لأنه يطرق ليلا، ومنه الحديث: نهى النبي ﷺ أن

(١) شك المصنف يدل على أنها أخبار لا تصح، والله أعلم.

(٢) كذا عند الطبري (٣٠ / ١٥١) في تفسيره بسند صحيح إليه.

(٤) وهذا معنى بعيد أيضاً وقد اختار ابن كثير وغيره أنه كل نجم يطرق بالليل، وانظر: تفسير ابن كثير (٨ / ٢٩٢).

(٦) وإه الإسناد: أبو صالح ضعيف جداً، وذكره الواحدى (ص ٣٨٩) في أسباب النزول دون سند. ورواه السيوطي (ص ٤٥٣) في اللباب من طريق الطبراني بسند فيه جوبير وهو هالك.

(٧) ضعيف إلى ابن عباس: الطبري (٣٠ / ١٥٠) في تفسيره من طريق العوفيين.

(٨) انظر ابن كثير (٨ / ٢٩٢) في تفسيره.

(٩) صحيح إليه: الطبري (٣٠ / ١٥٠) في تفسيره.

يطرق المسافر أهله ليلاً، كي تستحد المغيبة، وتشتط الشعثة<sup>(١)</sup>، والعرب تسمي كل قاصد في الليل طارقاً، يقال: طرق فلان إذا جاء ليليل، وقد طرق يطرق طروقاً، فهو طارق، ولاين الرومي:

يا راقداً الليل مسروراً بأوله      إن الحوادث قد يطرقن أسحارا  
لا تفرحن بليل طاب أوله      فرب آخر ليل أجج النارا

وفي الصحاح: والطارق: النجم الذي يقال له كوكب الصبح، ومنه قول هند:  
نحن بنات طارق      نمشي على النمارق<sup>(٢)</sup>

أي: إن أبانا في الشرف كالنجم المضيء، الماوردي: وأصل الطرق: الدق، ومنه سميت المطرقة، فسمي قاصد الليل طارقاً، لاحتياجه في الوصول إلى الدق، وقال قوم: إنه قد يكون نهارة، والعرب تقول: أتيتك اليوم طرقتين: أي مرتين، ومنه قوله عنه: «أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن»<sup>(٣)</sup>، وقال جرير في الطروق:

طَرَقْتُكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا      حِينَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ

ثم بين فقال: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النُّجْمُ الثَّاقِبُ» والثاقب: المضيء، ومنه «شِهَابٌ ثَاقِبٌ» [الصفات: ١٠] يقال: ثَقِبَ يَثْقُبُ ثُقُوبًا وثقابة: إذا أضاء، وثقوبه: ضوؤه، والعرب تقول: انقب نارك؛ أي أضتها، قال:

أذاع به في النَّاسِ حَتَّى كَانَهُ      بَعْلِيَاءَ نَارٍ أَوْقَدَتْ بِثُقُوبِ

الثقوب: ما تشعل به النار من دقاق العيدان، وقال مجاهد: الثاقب: المتوهج<sup>(٤)</sup>؛ القشيري والمعظم على أن الطارق والثاقب اسم جنس أريد به العموم، كما ذكرنا عن مجاهد، «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ» تفخيماً لشأن هذا المقسم به<sup>(٥)</sup>، وقال سفيان: كل ما في القرآن «وَمَا أَدْرَاكَ؟» فقد أخبره به، وكل شيء قال فيه «وَمَا يَذُرِيكَ» [الأحزاب: ٦٣]: لم يخبره به<sup>(٦)</sup>.

### ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝ ﴾

قال قتادة: حفظة يحفظون عليك رزقك وعملك وأجلك، وعنه أيضاً قال: قرينه يحفظ عليه عمله: من خير أو شر، وهذا هو جواب القسم، وقيل: الجواب «إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ» في قول الترمذي: محمد بن علي، و«إِنْ»: مخففة من الثقيلة، و«مَا»: مؤكدة، أي إن كل نفس لعلها

(١) متفق عليه: البخاري (٥٢٤٣، ٥٢٤٤) في النكاح، ومسلم (٧١٥) في الإمارة، عن جابر - رضي الله عنه، والشعثة: من تلبذ شعرها. اللسان (شعث).

(٢) هذا من قول هند بنت عتبة، انظر سيرة ابن هشام (٣/ ٥٠).

(٣) حسن بشواهد: رواه مالك (١٠) في الشعر مرسلاً، ورواه أحمد (٣/ ٤١٩) موصولاً في المسند، وابن السني

(٦٣١) - بترقيمي، عن عبد الرحمن بن خنيس - رضي الله عنه.

وعزاه الهيثمي (١٠/ ١٢٦، ١٢٧) في المجمع للطبراني من حديث أبي مالك الأشعري، وبسنده رواه الطبراني

في الصغير، عن ابن مسعود كما في المجمع (١٠/ ١٢٧، ١٢٨) وقال: وفيه من لم أعرفه.

(٤) الدر المنثور (٦/ ٥٦٠) للسيوطي وعزاه لعبد بن حميد.

(٦) سبق تخريجه.

حافظ، وقيل: المعنى إن كل نفس إلا عليها حافظ: يحفظها من الآفات، حتى يسلمها إلى القدر، قال الفراء: الحافظ من الله، يحفظها حتى يسلمها إلى المقادير، وقاله الكلبي، وقال أبو أمامة: قال النبي ﷺ: « وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك البصر، سبعة أملاك يذبون عنه، كما يذب عن قصعة العسل الذباب، ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاخطفته الشياطين» (١)، وقراءة ابن عامر وعاصم وحزمة «أَلْمَأُ» بتشديد الميم، أي ما كل نفس إلا عليها حافظ، وهي لغة هذيل: يقول قائلهم: نشدتك لما قمت، الباقون بالتخفيف (٢)، على أنها زائدة مؤكدة، كما ذكرنا، ونظير هذه الآية قوله تعالى: «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ» [الرعد: ١١]، على ما تقدم، وقيل: الحافظ هو الله سبحانه؛ فلولا حفظه لها لم تبق، وقيل: الحافظ عليه عقله، يرشده إلى مصالحه، ويكفه عن مضاره.

قلت: العقل وغيره وسائط، والحافظ في الحقيقة هو الله جل وعز؛ قال الله عز وجل «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا» [يوسف: ٦٥]، وقال: «قُلْ مَنْ يَكْتُمُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ» [الأنبياء: ٥٢]، وما كان مثله.

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿١﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٢﴾ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٣﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٤﴾ ﴾

قوله تعالى: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ» أي ابن آدم «مِمَّ خُلِقَ» وجه الاتصال بما قبله توصية الإنسان بالنظر في أول أمره، وستته الأولى، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه؛ فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، ولا يملئ على حافظه إلا ما يسره في عاقبة أمره، و«مِمَّ خُلِقَ»؟ استفهام؛ أي من أي شيء خلق؟ ثم قال «خُلِقَ» وهو جواب الاستفهام «مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ» أي من المني، والدفق: صب الماء، دفقت الماء أدفقه دفقا: صببته، فهو ماء دافق، أي مدفوق، كما قالوا: سر كاتم: أي مكتوم؛ لأنه من قولك: دفق الماء، على ما لم يسم فاعله، ولا يقال: دفق الماء، ويقال: دفق الله روحه: إذا دعى عليه بالموت، قال الفراء والأخفش «مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ» أي مصبوب في الرحم، الزجاج: من ماء ذي اندفاق، يقال: دارع وفارس ونابل؛ أي ذو فرس، ودرع، ونبل، وهذا مذهب سيبويه، فالدفاق هو المندفق بشدة قوته، وأراد ماين: ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، لكن جعلهما ماءً واحدا لامتزاجهما، وعن عكرمة عن ابن عباس (٣) «دَافِقٍ» لزج، «يُخْرَجُ» أي هذا الماء «مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ» أي الظهر، وفيه لغات أربع: صلب، وصلب - وقرئ بهما - وصلب بفتح اللام، وصلب على وزن قالب؛ ومنه قول العباس:

تَنْقُلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَحِمٍ

«والتَّرَائِبِ» أي: الصدر، الواحدة: تريبة؛ وهي موضع القلادة من الصدر، قال:

مُهْفَهْفَةٌ بِيضَاءُ غَيْرَ مَفَاضَةٍ تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجْنَجِلِ

(١) ضعيف: الهميشي (٧/ ٢٠٩) في المجمع وقال: رواه الطبراني وفيه غفير بن معدان وهو ضعيف.

(٢) قراءة متواترة: كما في تقريب النشر (ص ١٢٥).

(٣) وهو معنى صحيح.

والصلب من الرجل، والترائب من المرأة، قال ابن عباس: الترائب: موضع القلادة<sup>(١)</sup>، وعنه: ما بين ثديها<sup>(٢)</sup>؛ وقاله عكرمة<sup>(٣)</sup>، وروي عنه: يعني ترائب المرأة: اليدين والرجلين والعينين<sup>(٤)</sup>؛ وبه قال الضحاك<sup>(٥)</sup>، وقال سعيد بن جبيرة: هو الجيد<sup>(٦)</sup>؛ مجاهد: هو ما بين المنكبين والصدر، عنه: الصدر<sup>(٧)</sup>، وعنه: التراقي، وعن ابن جبيرة عن ابن عباس: الترائب: أربعة أضلاع من هذا الجانب<sup>(٨)</sup>، وحكى الزجاج: أن الترائب أربعة أضلاع من يمين الصدر، وأربعة أضلاع من يسرة الصدر، وقال معمر بن أبي حبيبة المدني: الترائب عصاراة القلب؛ ومنها يكون الولد، والمشهور من كلام العرب: أنها عظام الصدر والنحر، وقال دريد بن الصمة:

فإن تدبروا نأخذكم في ظهوركم وإن تقبلوا نأخذكم في الترائب

وقال آخر:

وبدت كأن ترائباً من نحرها جمر الغصى في ساعدٍ تتوقد

وقال آخر:

والزعفران على ترائبها شرق به اللبات والنحر

وعن عكرمة: الترائب: الصدر<sup>(٩)</sup>؛ ثم أنشد:

نظامٌ دُرٌّ على ترائبها

وقال ذو الرمة:

ضَرَجَنَ البرود عن ترائب حُرّة

أي شققن، ويروي «ضَرَحَنَ» بالخاء، أي: ألقين، وفي الصحاح: والتريبة: واحدة الترائب، وهي عظام الصدر؛ ما بين الترقوة والشدوة، قال الشاعر:

أشرف ثديها على التريب

وقال المثقب العبدي:

ومن ذهب يُسنّ على تريب كلون العاج ليس بذِي غُضُونِ

عن غير الجوهري: الشدوة للرجل بمنزلة الثدي للمرأة، وقال الأصمعي: مغرز الثدي، وقال ابن

(١) ضعيف: هذه رواية الضحاك والعمري عنه كما في تفسير ابن كثير (٨/ ٢٩٣)، وانظر: تفسير الطبري (٣٠/ ١٥٢).

(٢) ضعيف: منقطع بين ابن أبي طلحة وابن عباس كما في تفسير الطبري (٣٠/ ١٥٣).

(٣) حسن: الطبري (٣٠/ ١٥٣) في تفسيره.

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٩٣).

(٥) انظر: تفسير الطبري (٣٠/ ١٥٣) بسند ضعيف.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٢٩٣).

(٧) صحيح إلى مجاهد: رواه الطبري (٣٠/ ١٥٣) بسند فيه ثوبان بن أبي فاختة وهو ضعيف ثم رواه بسند آخر صحيح إليه هناك.

(٨) كذا في تفسير الطبري (٣٠/ ١٥٤) عن سعيد، وعن ابن عباس كما في الدر المنثور (٦/ ٥٦١).

(٩) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٩٣)، وفتح القدير (٧/ ٥٠٣) للشوكاني، والسيوطي (٦/ ٥٦٠) في الدر المنثور وعزاه لعبد بن حميد.

السكيت: هي اللحم الذي حول الثدي؛ إذا ضممت أولها همزت، وإذا فتحت لم تهمز، وفي التفسير: يخلق من ماء الرجل الذي يخرج من صلبه العظم والعصب، ومن ماء المرأة الذي يخرج من ترائبها اللحم والدم؛ وقاله الأعمش، وقد تقدم مرفوعا في أول سورة «آل عمران» (١)، والحمد لله وفي الحجرات ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجر: ١٣] وقد تقدم، وقيل: إن ماء الرجل ينزل من الدماغ، ثم يجتمع في الأنثيين، وهذا لا يعارض قوله: ﴿مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ﴾؛ لأنه إن نزل من الدماغ، فلإنما يمر بين الصلب والترائب، وقال قتادة: المعنى ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة (٢)، وحكى الفراء أن مثل هذا يأتي عن العرب؛ وعليه فيكون معنى من بين الصلب: من الصلب، وقال الحسن: المعنى: يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل، ومن صلب المرأة وترائب المرأة، ثم إننا نعلم أن النطفة من جميع أجزاء البدن؛ ولذلك يشبه الرجل والديه كثيرا، وهذه الحكمة في غسل جميع الجسد من خروج المني، وأيضا المكثر من الجماع يجد وجعا في ظهره وصلبه؛ وليس ذلك إلا لخلو صلبه عما كان محتبسا من الماء، وروى إسماعيل عن أهل مكة «يخرج من بين الصلب» بضم اللام، ورويت عن عيسى الثقفي، حكاه المهدوي وقال: من جعل المني يخرج من بين صلب الرجل وترائبها، فالضمير في «يُخْرَجُ» للماء، ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة، فالضمير للإنسان، وقرئ: «الصُّلْبُ» بفتح الصاد واللام، وفيه أربع لغات: صلب وصلب وصلب وصلاب، قال العجاج:

فِي صَلْبٍ مِثْلِ الْعِنَانِ الْمُؤَدَمِ

وفي مدح النبي ﷺ:

تَنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رَحِمٍ

الآبيات مشهورة معروفة، ﴿إِنَّهُ﴾ أي إن الله جل ثناؤه ﴿عَلَى رَجْعِهِ﴾ أي: على رد الماء في الإحليل، ﴿لِقَادِرٍ﴾ كذا قاله مجاهد والضحاك (٣)، وعنهما أيضا أن المعنى: إنه على رد الماء في الصلب؛ وقاله عكرمة، وعن الضحاك أيضا أن المعنى: إنه على رد الإنسان من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الكبر، لقادر، وكذا في المهدوي، وفي الماوردي والثعلبي: إلى الصبا، ومن الصبا إلى النطفة، وقال ابن زيد: إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج، لقادر، وقال ابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة أيضا: إنه على رد الإنسان بعد الموت لقادر، وهو اختيار الطبري (٥)، الثعلبي: وهو الأقوى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمَلَى السَّرَاطِرُ﴾ [الطارق: ٩] قال الماوردي: ويحتمل أنه على أن يعيده إلى الدنيا بعد بعثه في الآخرة؛ لأن

(١) عند الآية (٦) .

(٢) صحيح إلى قتادة: عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٦١) لعبد الرزاق وابن المنذر وعبد بن حميد .

(٣) ضعف إلى مجاهد: فيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف تفسير الطبري (٣٠/ ١٥٥) وفيه انقطاع بين الطبري وشيخه الحسين في رواية الضحاك .

(٤) الطبري (٣٠/ ١٥٥) في تفسيره .

(٥) انظر: السابق وهو صحيح إلى قتادة .

الكفار يسألون الله تعالى فيها الرجعة.

### ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : العامل في ﴿يَوْمَ﴾ وفي قول من جعل المعنى : إنه على بعث الإنسان قوله : ﴿لِقَادِرٍ﴾ ، ولا يعمل فيه ﴿رَجْعَهُ﴾ لما فيه من التفرقة بين الصلة والموصول بخبر ﴿إِنَّ﴾ ، وعلى الأقوال الأخر التي في ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لِقَادِرٌ﴾ ، يكون العامل في ﴿يَوْمَ﴾ فعل مضمر ، ولا يعمل فيه ﴿لِقَادِرٍ﴾ ؛ لأن المراد في الدنيا ، و﴿تَبْلَى﴾ أي : تمتحن وتختبر ؛ قال أبو الغول الطهوي :

ولا تَبْلَى بِسَالْتَهُمْ وَإِنْ هُمْ صَلَّى بِالْحَرْبِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ

ويروى تَبْلَى بِسَالْتَهُمْ ، فمن رواه ﴿تَبْلَى﴾ - بضم التاء - جعله من الاختبار ؛ وتكون البسالة على

هذه الرواية : الكراهة ؛ كأنه قال : لا يعرف لهم فيها كراهة ، و﴿تَبْلَى﴾ تعرف ، وقال الراجز :

قَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ تَزْدِرِينِي فَالْيَوْمِ أَبْلُوكِ وَتَبْلِينِي

أي أعرفك وتعرفني ، ومن رواه « تَبْلَى » بفتح التاء - فالمعنى : أنهم لا يضعفون عن الحرب وإن

تكررت عليهم زمانا بعد زمان ، وذلك أن الأمور الشداد إذا تكررت على الإنسان هدته وأضعفته ،

وقيل : ﴿تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ : أي تخرج مخبأتها وتظهر ، وهو كل ما كان استسره الإنسان من خير أو شر ،

وأضمره من إيمان أو كفر ؛ كما قال الأحوص :

سَيَقِي لَهَا فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحِشَا سَرِيرَةٌ وَدُّيَوْمِ تَبْلَى السَّرَائِرُ

الثانية : روي عن النبي ﷺ أنه قال : « اتضمن الله تعالى خلقه على أربع : على الصلاة ،

والصوم ، والزكاة ، والغسل ، وهي السرائر التي يختبرها الله عز وجل يوم القيامة » (١) ، ذكره

المهدوي ، وقال ابن عمر : قال النبي ﷺ : « ثلاث من حافظ عليها فهو ولي الله حقا ، ومن اختانهن

فهو عدو الله حقا : الصلاة ؛ والصوم ، والغسل من الجنابة » (٢) ذكره الثعلبي ، وذكر الماوردي عن زيد

ابن أسلم قال : قال رسول الله ﷺ : « الأمانة ثلاث : الصلاة ، والصوم ، والجنابة ، استأمن الله عز

وجل ابن آدم على الصلاة ؛ فإن شاء قال صليت ولم يصل ، استأمن الله عز وجل ابن آدم على

الصوم ، فإن شاء قال صمت ولم يصم ، استأمن الله عز وجل ابن آدم على الجنابة ؛ فإن شاء قال

اغتسلت ولم يغتسل ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (٣) ، وذكره الثعلبي عن عطاء قوله ،

وقال مالك في رواية أشهب عنه ، وسألته عن قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ : أبلغك أن الوضوء من

(١) موضوع : حكم عليه الألباني (٣٥٩٤) في ضعيف الجامع بالوضع ولفظه : «ضمن الله خلقه أربعاً» .

(٢) ضعيف : الطبراني (٨ / ٩) في الأوسط عن أنس - رضي الله عنه ، وضعفه الألباني (٢٥٤٢) في ضعيف الجامع .

(٣) معضل : وذكره الماوردي (٦ / ٢٤٨) في تفسيره ، وذكره السيوطي (٣ / ٢٢٦) في الدر المنثور .

السرائر؟ قال: قد بلغني ذلك فيما يقول الناس، فأما حديث أحدث به فلا، والصلاة من السرائر، والصيام من السرائر، إن شاء قال صليت ولم يصل، ومن السرائر ما في القلوب؛ يجزي الله به العباد، قال ابن العربي: قال ابن مسعود: يغفر للشهيد إلا الأمانة، والوضوء من الأمانة، والصلاة والزكاة من الأمانة، والوديعة من الأمانة؛ وأشد ذلك الوديعة؛ تمثل له على هيئتها يوم أخذها؛ فيرمي بها في قعر جهنم، فيقال له: أخرجها، فيتبعها فيجعلها في عنقه، فإذا رجا أن يخرج بها زلت منه، فيتبعها؛ فهو كذلك دهر الدهارين، وقال أبي بن كعب: من الأمانة أن اتمنت المرأة على فرجها (١)، قال أشهب: قال لي سفيان: في الحيضة والحمل، إن قالت: لم أحض وأنا حامل صدقت، ما لم تأت بما يعرف فيه أنها كاذبة، وفي الحديث: «غسل الجنابة من الأمانة» (٢)، وقال ابن عمر: يبدي الله يوم القيامة كل سر خفي، فيكون زينا في الوجوه، وشينا في الوجوه، والله عالم بكل شيء، ولكن يظهر غلامات الملائكة والمؤمنين.

### ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُ ﴾ أي: للإنسان ﴿ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ أي: منعة تمنعه، ﴿ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ ينصره مما نزل به، وعن عكرمة ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ قال: هؤلاء الملوك، ما لهم يوم القيامة من قوة ولا ناصر، وقال سفيان: القوة: العشييرة، والناصر: الحليف، وقيل: ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ في بدنه، ﴿ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ من غيره يمتنع به من الله، وهو معنى قول قتادة (٣).

### ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۗ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۗ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ ۗ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۗ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۗ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۗ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ أي: ذات المطر، ترجع كل سنة بمطر بعد مطر، كذا قاله عامة المفسرين، وقال أهل اللغة: الرجع: المطر، وأنشدوا للمتخل يصف سيفاً شبهه بالماء:  
أبيض كالرجع رسوباً إذا ما نأخ في مُحْتَفِلٍ يَخْتَلِي  
ناخت قدمه في الوحل تثوخ وتتيخ: خاضت وغابت فيه؛ قاله الجوهري، قال الخليل: الرجع: المطر نفسه، والرجع أيضاً: نبات الربيع، وقيل ﴿ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾، أي ذات النفع، وقد يسمى المطر أيضاً أوباً، كما يسمى رجعا، قال:

رَبَّاءُ سَمَاءً لَا يَأْوِي لِقُلَّتْهَا إِلَّا السَّحَابُ وَإِلَّا الْأَوْبُ وَالسَّيْلُ

وقال عبد الرحمن بن زيد: الشمس والقمر والنجوم يرجعن في السماء؛ تطلع من ناحية وتغيب في أخرى (٤)، وقيل: ذات الملائكة؛ لرجوعهم إليها بأعمال العباد، وهذا قسم، ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ

(١) حسن: الحاكم (٢/ ٤٥٨) في المستدرک وسکت عنه .

(٢) ضعيف: ضعفه الألباني (٣٧) في ضعيف أبي داود، وفي الضعيفة (٣٨٠١) .

(٣) صحيح إلى قتادة: الطبري (٣٠/ ١٥٦) في تفسيره .

(٤) حسن: الطبري (٣٠/ ١٥٧) في تفسيره .

الصدع ﴿قَسَمَ آخَرَ أَي : تَصَدَّعَ عَنِ النَّبَاتِ وَالشَّجَرِ وَالشَّمَارِ وَالْأَنْهَارِ؛ نَظِيرُهُ: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٦] الآية، والصدع؛ بمعنى الشق؛ لأنه يصدع الأرض، فتصدع به، وكأنه قال: والأرض ذات النبات؛ لأن النبات صاعد للأرض، وقال مجاهد: والأرض ذات الطرق التي تصدعها المشاة، وقيل: ذات الحرث، لأنه يصدعها، وقيل: ذات الأموات: لانصداعها عنهم للنشور، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ على هذا وقع القسم، أي: إن القرآن يفصل بين الحق والباطل، وقد تقدم في مقدمة الكتاب ما رواه الحارث عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « كتاب فيه خبر ما قبلكم وحكم ما بعدكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله» (١). وقيل: المراد بالقول الفصل: ما تقدم من الوعيد في هذه السورة، من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تَأْتِي السَّرَّارُ﴾، ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزِيلِ﴾ أي: ليس القرآن بالباطل واللعب، والهزل: ضد الجد، وقد هزل يهزل، قال الكمي:

يُجَدُّ بِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَنَهْزِلُ

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: إن أعداء الله ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: يمكرون بمحمد ﷺ وأصحابه مكرا، ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أي أجازيهم جزاء كيدهم، وقيل: هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والأسر، وقيل: كيد الله: استدراجهم من حيث لا يعلمون، وقد مضى هذا المعنى في أول البقرة، عند قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، مستوفى.

### ﴿فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤُودًا﴾

قوله تعالى ﴿فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ﴾ أي أحرهم، ولا تسأل الله تعجيل إهلاكهم، وارض بما يدبره في أمورهم، ثم نسخت بآية السيف ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، ﴿أَهْلَهُمْ﴾ تأكيد، ومهل وأمهل: بمعنى؛ مثل نَزَلَ وَأَنْزَلَ، وأمهله: أنظره، ومهله تمهلا، والاسم: المهلة، والاستمهال: الاستنظار، وتمهل في أمره، أي أتاد، واتمهل اتمهالا: أي اعتدل وانتصب، والاتمهال أيضا: سكون وفنور، ويقال: مهلا يا فلان؛ أي رفقا وسكونا، ﴿رُؤُودًا﴾ أي: قريبا؛ عن ابن عباس (٢). فتادة: قليلا (٣)، والتقدير: أمهلهم إمهالا قليلا، والرويد في كلام العرب: تصغير رود، وكذا قاله أبو عبيد، وأنشد:

كَأَنَّهَا تَمَلُّ بِمِشْيِ عَلِيٍّ رُودٍ

أي على مهل، وتفسير ﴿رُؤُودًا﴾: مهلا، وتفسير رويدك: أمهل؛ لأن الكاف إنما تدخله إذا كان بمعنى أفعال دون غيره، وإنما حركت الدال لالتقاء الساكنين، فنصب نصب المصادر، وهو مصغر مأمور به؛ لأنه تصغير الترخيم من إرود؛ وهو مصدر أروود يروود، وله أربعة أوجه: اسم للفعل، وصفة، وحال، ومصدر؛ فالاسم نحو قولك: رويد عمرا؛ أي أروود عمرا، بمعنى أمهله، والصفة نحو

(١) ضعيف: سبق تضعيفه في مقدمة الكتاب.

(٢) منقطع: بين علي بن أبي طلحة، وابن عباس - رضي الله عنهما، وتفسير الطبري (٣٠ / ١٦٠).

(٣) صحیح إلى فتادة: الطبري (٣٠ / ١٦٠) في تفسيره.

قولك: ساروا سيراً رويداً، والحال نحو قولك: سار القوم رويداً؛ لما اتصل بالمعرفة صار حالاً لها، والمصدر نحو قولك: رويد عمرو بالإضافة؛ كقوله تعالى: ﴿فَضْرِبِ الرِّقَابَ﴾ [محمد: ٤]، قال جميعه الجوهري، والذي في الآية من هذه الوجوه أن يكون نعتاً للمصدر؛ أي: إمهالاً رويداً، ويجوز أن يكون للحال؛ أي: أمهلهم غير مستعجل لهم العذاب.  
ختمت السورة.

## سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾

يستحب للقارئ إذا قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أن يقول عقبه: سبحان ربي الأعلى؛ قاله النبي ﷺ، وقاله جماعة من الصحابة والتابعين؛ على ما يأتي.

وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: إن لله تعالى ملكا يقال له: حزقيائيل، له ثمانية عشر ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمسمائة عام، فخطر له خاطر هل تقدر أن تبصر العرش جميعه؟ فزاده الله أجنحة مثلها، فكان له ستة وثلاثون ألف جناح، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام، ثم أوحى الله إليه: أيها الملك، أن طر، فطار مقدار عشرين ألف سنة؛ فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش، ثم ضاعف الله له في الأجنحة والقوة، وأمره أن يطير، فطار مقدار ثلاثين ألف سنة أخرى، فلم يصل أيضا؛ فأوحى الله إليه أيها الملك، لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك وقوتك لم تبلغ ساق عرشي، فقال الملك: سبحان ربي الأعلى؛ فأنزل الله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، فقال النبي ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»<sup>(١)</sup>، ذكره الثعلبي في كتاب العرائس له.

وقال ابن عباس والسدي: معنى ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي: عظم ربك الأعلى، والاسم صلة، قصد بها تعظيم المسمى؛ كما قال لبيد:

إلى الحول ثم اسمُ السلامِ عليكما

وقيل: نزه ربك عن السوء، وعمّا يقول فيه الملحدون، وذكر الطبري<sup>(٢)</sup> أن المعنى نزه اسم ربك عن أن تسمي به أحدا سواه، وقيل: نزه تسمية ربك وذكرك إياه، أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم، ولذكرة محترم، وجعلوا الاسم بمعنى التسمية، والأولى أن يكون الاسم هو المسمى، روى نافع عن ابن عمر قال: لا تقل: على اسم الله؛ فإن اسم الله هو الأعلى.

وروى أبو صالح عن ابن عباس: صلّ بأمر ربك الأعلى، قال: وهو أن تقول: سبحان ربك الأعلى.

وروي عن علي رضي الله عنه، وابن عباس وابن عمرو وابن الزبير وأبي موسى وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهم: أنهم كانوا إذا افتتحوا قراءة هذه السورة قالوا: سبحان ربي الأعلى؛ امتثالا

(١) عزاه السيوطي (٦/ ٥٦٥) لابن مردويه عن أبي هريرة، وصححه الألباني (٤٧٦٦) في صحيح الجامع.

(٢) انظر تفسير الطبري (٣٠/ ١٦٢).

لامره في ابتدائها (١) ، فيختار الاقتداء بهم في قراءتهم؛ لا أن سبحان ربي الأعلى من القرآن؛ كما قاله بعض أهل الزيغ، وقيل: إنها في قراءة أبي: «سبحان ربي الأعلى»، وكان ابن عمر يقرؤها كذلك، وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا قرأها قال: «سبحان ربي الأعلى» (٢) .

قال أبو بكر الأنباري: حدثني محمد بن شهريار، قال: حدثنا حسين بن الأسود، قال: حدثنا عبدالرحمن بن أبي حماد قال: حدثنا عيسى بن عمر، عن أبيه، قال: قرأ علي بن أبي طالب عليه السلام في الصلاة ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، فقال: سبحان ربي الأعلى؛ فلما انقضت الصلاة قيل له: يا أمير المؤمنين، أتزيد هذا في القرآن؟ قال: ما هو؟ قالوا: سبحان ربي الأعلى، قال: لا، إنما أمرنا بشيء فقلته، وعن عقبه بن عامر الجهني قال: لما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم» (٣)، وهذا كله يدل على أن الاسم هو المسمى؛ لأنهم لم يقولوا: سبحان اسم ربي الأعلى، وقيل: إن أول من قال: «سبحان ربي الأعلى» ميكائيل عليه السلام، وقال النبي ﷺ لجبريل: «يا جبريل أخبرني بثواب من قال: سبحان ربي الأعلى في صلته أو في غير صلته»، فقال: يا محمد، ما من مؤمن ولا مؤمنة يقولها في سجوده أو في غير سجوده، إلا كانت له في ميزانه أثقل من العرش والكرسي وجبال الدنيا، ويقول الله تعالى: صدق عبدي، أنا فوق كل شيء، وليس فوقي شيء، اشهدوا يا ملائكتي أنني قد غفرت له وأدخلته الجنة، فإذا مات زاره ميكائيل كل يوم، فإذا كان يوم القيامة حمله على جناحه، فأوقفه بين يدي الله تعالى، فيقول: يا رب شفعي فيه، فيقول: قد شفعتك فيه، فاذهب به إلى الجنة» (٤)، وقال الحسن: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أي: صل لربك الأعلى (٥)، وقيل: أي: صل بأسماء الله، لا كما يصلي المشركون بالمكان والتصدية، وقيل: ارفع صوتك بذكر ربك.

قال جرير:

فَبِحَ الْإِلَهِ وَجْوهَ تَغْلِبُ كَلِمَا      سَبِّحَ الْحَجِيجُ وَكَبِّرُوا تَكْبِيرَا

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَىٰ ﴿١﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٣﴾ فَجَعَلَهُ غَنَاءً أُخْرَىٰ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَىٰ﴾ قد تقدم معنى التسوية في الانفطار وغيرها، أي سوى ما خلق، فلم يكن في خلقه تشبيح، وقال الزجاج: أي [خلق الإنسان سويا]، ومعنى «سوى»: عدل قامته، وعن ابن عباس: حسن ما خلق، وقال الضحاك: خلق آدم فسوى خلقه، وقيل: خلق في أصلاب الآباء، وسوى في أرحام الأمهات، وقيل: خلق الأجساد، فسوى الأقسام، وقيل: أي خلق الإنسان وهياه للتكليف، ﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قرأ علي رضي الله عنه السلمي والكسائي «قَدَّرَ» مخففة

(١) انظر: الدر المنثور (٦/ ٥٦٦، ٥٦٧) للسيوطي .

(٢) الطبري (٣٠/ ١٦٢) في تفسيره .

(٣) انظر: الدر المنثور (٦/ ٥٦٦، ٥٦٧) .

(٤) ضعيف جداً؛ وقد سبق .

(٥) انظر: تفسير الحسن البصري (٢/ ٤١١) .

الدال (١)، وشدد الباقون، وهما بمعنى واحد، أي قدر ووفق لكل شكل شكله، ﴿فَهْدَى﴾ أي أُرشد، قال مجاهد: قدر الشقاوة والسعادة، وهدى للرشد والضلالة، وعنه قال: هدى الإنسان للسعادة والشقاوة، وهدى الأنعام لمراعبيها (٢)، وقيل: قدر أقاتهم وأرزاقهم، وهداهم لمعاشهم إن كانوا إنسا، ولمراعبيهم إن كانوا وحشا، وروي عن ابن عباس والسدي ومقاتل والكلبي في قوله: ﴿فَهْدَى﴾ قالوا: عَرَفَ خلقه كيف يأتي الذكر الأثني؛ كما قال في طه ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] أي الذكر للأثني، وقال عطاء: جعل لكل دابة ما يصلحها، وهداها له، وقيل: خلق المنافع في الأشياء، وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها، وقيل: ﴿قَدَّرَ فَهْدَى﴾ قدر لكل حيوان ما يصلحه، فهدها إليه، وعرفه وجه الانتفاع به، يحكى أن الأفعى إذا أنت عليها ألف سنة عميت، وقد ألهمها الله أن مسح العين بورق الرازيانج (٣) الغض يرد إليها بصرها؛ فرمما كانت في بركة بينها وبين الريف مسيرة أيام، فتطوي تلك المسافة على طولها وعلى عماها، حتى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرازيانج لا تخطئها، فتحك بها عينها وترجع باصرة بإذن الله تعالى، وهدايات الإنسان إلى ما لا يحد من مصالحه، وما لا يحصر من حوائجه، في أغذيته وأدويته، وفي أبواب دنياه ودينه، وإلهامات البهائم والطيور وهوام الأرض باب واسع، وشوط بطين (٤)، لا يحيط به وصف واصف؛ فسبحان ربي الأعلى، وقال السدي: قدر مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر، وأقل وأكثر، ثم هداه للخروج من الرحم، وقال الفراء: أي قدر، فهدى وأصل؛ فاكتفى بذكر أحدهما؛ كقوله تعالى: ﴿سَرَّابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] ويحتمل أن يكون بمعنى دعا إلى الإيمان؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، أي لتدعو، وقد دعا الكل إلى الإيمان، وقيل: ﴿فَهْدَى﴾ أي دلهم بأفعاله على توحيده، وكونه عالما قادرا، ولا خلاف أن من شدد الدال من ﴿قَدَّرَ﴾ أنه من التقدير؛ كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ومن خفف فيحتمل أن يكون من التقدير فيكونان بمعنى، ويحتمل أن يكون من القدر والملك؛ أي ملك الأشياء، وهدى من يشاء.

قلت: وسمعت بعض أشياخي يقول: الذي خلق فسوى وقدر فهدى، هو تفسير العلو الذي يليق بجلال الله سبحانه على جميع مخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أي النبات والكلأ الأخضر، قال الشاعر:

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى      وتبقى حزازات النفوس كما هيا

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ الغشاء: ما يقذف به السيل على جوانب الوادي من الحشيش والنبات

والقماش (٥)، وكذلك الغشاء بالتشديد، والجمع: الأغشاء. قتادة: الغشاء: الشيء اليابس (٦)، ويقال

(١) قراءة سبعة متواترة: كما في تقريب النشر (ص ١٨٨).

(٢) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٣٠ / ١٦٢) في تفسيره.

(٣) الرازيانج: شجرة يسميها أهل اليمن: السمار.

(٤) شوط بطين: بعيد.

(٥) القماش: هو ما كان على وجه الأرض من نبات لا شيء حتى يقال لردالة الناس: قماش. اللسان «قمش».

(٦) صحيح إلى قتادة: الطبري (٣٠ / ١٦٣) في تفسيره.

لنقبل والحشيش إذا تحطم ويبس: غشاء وهشيم، وكذلك للذي يكون حول الماء من القماش غشاء؛ كما قال:

كَانَ طَمِيَّةَ الْمُجِيمِ غُدْوَةً مِنَ السَّيْلِ وَالْأَغْثَاءِ (١) فَلَكَّةُ مِغْرُولٌ

وحكى أهل اللغة: غثا الوادي وجفا، وكذلك الماء: إذا علاه من الزيد والقماش ما لا ينتفع به، والأحوى: الأسود؛ أي: أن النبات يضرب إلى الحوة من شدة الخضرة كالأسود، والحوة: السواد؛ قال الأعشى:

لَمِيَاءٌ فِي شَفْتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسُ وَفِي اللَّثَاثِ وَفِي أُنْيَابِهَا شَبَبٌ

وفي الصحاح: والحوة: سمرة الشفة، يقال: رجل أحوى، وامرأة حواء، وقد حويت، وبغير أحوى إذا خالط خضرته سواد وصفرة، وتصغير أحوى أحيو؛ في لغة من قال: أسويد، ثم قيل: يجوز أن يكون ﴿أَحْوَى﴾ حالا من ﴿المرعى﴾، ويكون المعنى: كأنه من خضرته يضرب إلى السواد؛ والتقدير: أخرج المرعى أحوى، فجعله غشاء يقال: قد حوي النبات؛ حكاه الكسائي. وقال:

وَعَيْثُ مِنَ الْوَسْمِيِّ حَوْ تَلَاعُهُ تَبَطَّنَتْهُ بِشَيْظُمٍ صَلْتَانُ

ويجوز أن يكون ﴿أَحْوَى﴾ صفة لـ ﴿غُثَاءً﴾، والمعنى: أنه صار كذلك بعد خضرته، وقال أبو عبيدة: فجعله أسود من احتراقه وقدمه؛ والرطب إذا يبس أسود، وقال عبد الرحمن بن زيد: أخرج المرعى أخضر، ثم لما يبس أسود، فصار غشاء تذهب به الرياح والسيول، وهو مثل ضربه الله تعالى للكفار، لذهاب الدنيا بعد نضارتها.

﴿سَقَرْنَاكَ فَلَا تَنْسَى﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿وَيَنْبِرُكَ لِلْيَسْرَى﴾

قوله تعالى: ﴿سَقَرْنَاكَ﴾ أي القرآن يا محمد فنعلمك ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ أي فتحفظ؛ رواه ابن وهب عن مالك، وهذه بشرى من الله تعالى؛ بشره بأن أعطاه آية بينة، وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي، وهو أُمِّي لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه، وعن ابن أبي نجیح عن مجاهد، قال: كان يتذكر مخافة أن ينسى، فقيل: كفيته (٢)؛ قال مجاهد والكلبي: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، لم يفرغ جبريل من آخر الآية، حتى يتكلم النبي ﷺ بأولها، مخافة أن ينساها؛ فنزلت ﴿سَقَرْنَاكَ فَلَا تَنْسَى﴾ بعد ذلك شيئا، فقد كفيته.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وجه الاستثناء على هذا، ما قاله الفراء: إلا ما شاء الله، وهو لم يشأ أن تنسى شيئا؛ كقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٨]، ولا يشاء، ويقال في الكلام: لأعطينك كل ما سألت إلا ما شئت، وإلا أن أشاء أن أمنعك، والنية على ألا يمنعه شيئا، فعلى هذا مجازي الأيمان؛ يستثنى فيها ونية الخائف التمام، وفي رواية أبي صالح

(١) صحيح إيه: الطبري (١٦٣ / ٣٠) في تفسيره.

(٢) صحيح مرسل: مجاهد لم يدرك زمن النبي ﷺ والمعنى وصحيح، وانظر السابق.

عن ابن عباس: فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتى مات، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، وعن سعيد عن قتادة، قال: كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئا؛ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ (١)، وعلى هذه الأقوال قيل: إلا ما شاء الله أن ينسى، ولكنه لم ينس شيئا منه بعد نزول هذه الآية، وقيل: إلا ما شاء الله أن ينسى، ثم يذكر بعد ذلك؛ فإذا قد نسي، ولكنه يتذكر ولا ينسى نسيانا كليا، وقد روي أنه أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب أبي أنها نسخت، فسأله فقال: «إني نسيتها» (٢)، وقيل: هو من النسيان؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسيك، ثم قيل: هذا بمعنى النسخ؛ أي إلا ما شاء الله أن ينسخه، والإنساء نوع من النسخ، وقيل، النسيان بمعنى الترك؛ أي والإنساء يعصمك من أن تترك العمل به؛ إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه إياه، فهذا في نسخ العمل، والأول في نسخ القراءة، قال الفرغاني: كان يغشى مجلس الجنيد أهل البسط من العلوم، وكان يغشاه ابن كيسان النحوي، وكان رجلا جليلا؛ فقال يوما: ما تقول يا أبا القاسم في قول الله تعالى: ﴿سَنُقْرُوكَ فَلَا تَنْسَى﴾؟ فأجابه مسرعا - كأنه تقدم له السؤال قبل ذلك بأوقات: لا تنسى العمل به، فقال ابن كيسان: لا يفضض الله فاك مثلك من يصدر عن رأيه، وقوله: ﴿فَلَا﴾ للنفي لا للنهي، وقيل: للنهي؛ وإنما أثبتت الياء لأن رؤوس الآي على ذلك، والمعنى: لا تغفل عن قراءته وتكراره فتنساه؛ إلا ما شاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته للمصلحة، والأول هو المختار؛ لأن الاستثناء من النهي لا يكاد يكون إلا مؤقتا معلوما، وأيضا فإن الياء مثبتة في جميع المصاحف، وعليها القراء، وقيل: معناه إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله، وقيل: المعنى فجعله غثا أحوى إلا ما شاء الله أن ينال بنو آدم والبهايم، فإنه لا يصير كذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾. أي الإعلان من القول والعمل، ﴿وَمَا يَخْفَى﴾ من السر، وعن ابن عباس: ما في قلبك ونفسك (٣)، وقال محمد بن حاتم: يعلم إعلان الصدقة وإخفاءها، وقيل: الجهر ما حفظته من القرآن في صدرك، ﴿وَمَا يَخْفَى﴾ هو ما نسخ من صدرك، ﴿وَيُنْسِرُكَ﴾: معطوف على ﴿سَنُقْرُوكَ﴾ وقوله ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ اعتراض، ومعنى ﴿لِلْيَسْرِ﴾ أي للطريقة اليسرى؛ وهي عمل الخير، قال ابن عباس: نيسرك لأن تعمل خيرا؛ ابن مسعود: ﴿لِلْيَسْرِ﴾ أي للجنة (٤)، وقيل: نونفتك للشرية اليسرى؛ وهي الحنيفة السمحة السهلة؛ قال معناه الضحاك، وقيل: أي نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به.

### ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي فغظ قومك يا محمد بالقرآن، ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أي: الموعظة، وروى يونس عن الحسن قال: تذكرة للمؤمن، وحجة على الكافر (٥)، وكان ابن عباس يقول: تنفع

(١) صحيح لكنه مرسل: قتادة لم يدرك زمن النبي ﷺ، وانظر تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٣٩٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) صحيح المعنى: ولم أجده.

(٤) سبق تخريجه: وانظر تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٣٩٠) وذكره عن ابن عباس.

(٥) صحيح إلى الحسن: تفسير الحسن البصري (٢/ ٤١١).

أوليائي، ولا تنفع أعدائي، وقال الجرجاني: التذكير واجب وإن لم ينفع، والمعنى: فذكر إن نفعت الذكرى؛ أو لم تنفع، فحذف؛ كما قال: ﴿سَرَّابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، وقيل: إنه مخصوص بأقوام بأعيانهم، وقيل: إن ﴿إِنْ﴾ بمعنى ما؛ أي فذكر ما نفعت الذكرى، فتكون ﴿إِنْ﴾ بمعنى ما، لا بمعنى الشرط؛ لأن الذكرى نافعة بكل حال؛ قاله ابن شجرة، وذكر بعض أهل العربية ﴿أَنْ﴾ ﴿إِنْ﴾ بمعنى إذ؛ أي إذ نفعت؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] أي إذ كنتم؛ فلم يخبر بعلوهم إلا بعد إيمانهم، وقيل: بمعنى قد.

### ﴿سَيَذَكَّرُ مَن يَخْشَى﴾

أي: من يتقي الله ويخافه، فروى أبو صالح<sup>(١)</sup> عن ابن عباس قال: نزلت في ابن أم مكتوم، الماوردي: وقد يذكر من يرجوه، إلا أن تذكرة الخاشي أبلغ من تذكرة الراجي؛ فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء، وإن تعلقت بالخشية والرجاء، وقيل: أي: عمم أنت التذكير والوعظ، وإن كان الوعظ إنما ينفع من يخشى، ولكن يحصل لك ثواب الدعاء؛ حكاه القشيري.

### ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي ويتجنب الذكرى ويبعد عنها، ﴿الْأَشْقَى﴾ أي الشقي في علم الله، وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة، ﴿الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى﴾ أي العظمى، وهي السفلى من أطباق النار؛ قاله الفراء<sup>(٢)</sup>، وعن الحسن: الكبرى نار جهنم، والصغرى نار الدنيا<sup>(٣)</sup>؛ وقاله يحيى بن سلام، ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ أي: لا يموت فيستريح من العذاب، ولا يحيا حياة تنفعه؛ كما قال الشاعر:

ألا ما لنفس لا تموت فينقضي - عَناها ولا تحيا حياة لها طعمُ

وقد مضى في «النساء»<sup>(٤)</sup> وغيرها حديث أبي سعيد الخدري، وأن الموحد من المذنبين إذا دخلوا جهنم - وهي النار الصغرى على قول الفراء - احترقوا فيها وماتوا؛ إلى أن يشفع فيهم، خرجه مسلم<sup>(٥)</sup>، وقيل: أهل الشقاء متفاوتون في شقائهم، وهذا الوعيد للأشقى، وإن كان ثم شقي لا يبلغ هذه المرتبة.

### ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي قد صادف البقاء في الجنة؛ أي من تطهر من الشرك

(١) وإيه: هذا إسناد تالف لكون أبي صالح من الكذابين على ابن عباس - رضي الله عنهما.

(٢) انظر: معاني القرآن (٣/ ٢٥٦) للفراء.

(٣) تفسير الحسن البصري (٢/ ٤١٢).

(٤) عند الآية (٤٠).

(٥) متفق عليه: وسبق تخريجه ضمن حديث الشفاعة الطويل.

بالإيمان؛ قاله ابن عباس<sup>(١)</sup> وعطاء وعكرمة، وقال الحسن والربيع: من كان عمله زاكياً نامياً، وقال معمر عن قتادة ﴿تَرَكَئِي﴾ قال بعمل صالح<sup>(٢)</sup>، وعنه وعن عطاء وأبي العالية: نزلت في صدقة الفطر<sup>(٣)</sup>، وعن ابن سيرين ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَئِي﴾<sup>(٤)</sup> وذكر اسم ربه فصلئاً قال: خرج فصلئ بعد ما أدى، وقال عكرمة: كان الرجل يقول أقدم زكاتي بين يدي صلاتي، فقال سفيان: قال الله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَئِي﴾<sup>(٥)</sup> وذكر اسم ربه فصلئاً، وروى عن أبي سعيد الخدري وابن عمر: أن ذلك في صدقة الفطر، وصلاة العيد، وكذلك قال أبو العالية، وقال: إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها، ومن سقاية الماء، وروى كثير بن عبدالله عن أبيه عن جده، عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَئِي﴾ قال: «أخرج زكاة الفطر»<sup>(٦)</sup>، «وذكر اسم ربه فصلئاً» قال: «صلاة العيد»، وقال ابن عباس والضحاك «وذكر اسم ربه» في طريق المصلئ «فصلئاً» صلاة العيد، وقيل: المراد بالآية زكاة الأموال كلها؛ قاله أبو الأحوص وعطاء، وروى ابن جريج قال: قلت لعطاء ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَئِي﴾ للفطر؟ قال: هي للصدقات كلها، وقيل: هي زكاة الأعمال، لا زكاة الأموال، أي تطهر في أعماله من الرياء والتقصير؛ لأن الأكثر أن يقال في المال: زكى، لا تَرَكَئِي، وروى جابر بن عبدالله قال: قال النبي ﷺ: «﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَئِي﴾ أي من شهد أن لا إله إلا الله، وخلع الأنداد، وشهد أني رسول الله»<sup>(٧)</sup>، وعن ابن عباس ﴿تَرَكَئِي﴾ قال: لا إله إلا الله، وروى عنه عطاء قال: نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: كان بالمدينة منافق كانت له نخلة بالمدينة، ماثلة في دار رجل من الأنصار، إذا هبت الرياح أسقطت البسر والرطب إلى دار الأنصاري، فيأكل هو وعياله، فخاصمه المنافق؛ فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إلى المنافق وهو لا يعلم نفاقه، فقال: «إن أخاك الأنصاري ذكر أن بسرك ورطبك يقع إلى منزله، فيأكل هو وعياله، فهل لك أن أعطيك نخلة في الجنة بدلها؟» فقال: أبيع عاجلاً بأجل لا أفعل، فذكروا أن عثمان بن عفان أعطاه حائطاً من نخل بدل نخلته؛ ففيه نزلت ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَئِي﴾، ونزلت في المنافق ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾<sup>(٨)</sup>، وذكر الضحاك أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه<sup>(٩)</sup>.

الثانية: قد ذكرنا القول في زكاة الفطر في السورة «البقرة» مستوفى<sup>(١٠)</sup>، وقد تقدم أن هذه السورة مكية في قول الجمهور، ولم يكن بمكة عيد ولا زكاة فطر، القشيري: ولا يبعد أن يكون أثنى على من يمثل أمره في صدقة الفطر وصلاة العيد، فيما يأمر به في المستقبل.

(١) منقطع: بين علي بن أبي طلحة وابن عباس، وكذا هو عند الطبري (٣٠ / ١٦٦) في تفسيره، وكذا رواه عن عكرمة بإسناد حسن.

(٢) صحيح: تفسير الطبري (٣٠ / ١٦٦).

(٣) مرسل: تفسير الطبري (٣٠ / ١٦٦).

(٤) ضعيف: الهيثمي (٣ / ٨٠) في المجمع، وعزاه للبخاري، وفيه: كثير بن عبد الله وهو ضعيف.

(٥) ضعيف جداً: الهيثمي (٧ / ١٣٧) وعزاه للبخاري، عن شيخه عباد بن أحمد العزمي وهو: متروك.

(٦، ٧) مرسلان منقطعان: وانظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٢ / ٣٩٤).

(٨) عند الآية (٤٣).

الثالثة : قوله تعالى : ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ أي : ذكر ربه <sup>(١)</sup> ، وروى عطاء عن ابن عباس قال : يريد ذكر معاده وموقفه بين يدي الله جل ثناؤه ، فعبده وصلّى له ، وقيل : ذكر اسم ربه بالتكبير في أول الصلاة ، لأنها لا تتعقد إلا بذكره ؛ وهو قوله : الله أكبر ، وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح ، وعلى أنها ليست من الصلاة ؛ لأن الصلاة معطوفة عليها ، وفيه حجة لمن قال : إن الافتتاح جائز بكل اسم من أسماء الله عز وجل ، وهذه مسألة خلافية بين الفقهاء ، وقد مضى القول في هذا في أول سورة البقرة <sup>(٢)</sup> ، وقيل : هي تكبيرات العيد ، قال الضحاك ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ في طريق المصلّي ﴿فَصَلَّى﴾ أي صلاة العيد ، وقيل : ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ وهو أن يذكره بقلبه عند صلاته ، فيخاف عقابه ، ويرجو ثوابه ؛ ليكون استيفاءه لها ، وخشوعه فيها ، بحسب خوفه ورجائه ، وقيل : هو أن يفتح أول كل سورة بسم الله الرحمن الرحيم ، ﴿فَصَلَّى﴾ أي فصلّى وذكّر ، ولا فرق بين أن تقول : أكرممتي فررتي ، وبين أن تقول : زرتني فأكرممتي ، قال ابن عباس : هذا في الصلاة المفروضة ، وهي الصلوات الخمس ، وقيل : الدعاء ؛ أي دعاء الله بحوائج الدنيا والآخرة ، وقيل : صلاة العيد ؛ قاله أبو سعيد الخدري وابن عمر وغيرهما ، وقد تقدم ، وقيل : هو أن يتطوع بصلاة بعد زكاته ؛ قاله أبو الاحوص ، وهو مقتضى قول عطاء ، وروي عن عبدالله قال : من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا صلاة له <sup>(٣)</sup> .

### ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

قراءة العامة ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ بالتاء ؛ تصديقه قراءة أبي «بل أنتم تؤثرون» ، وقرأ أبو عمرو ونصر بن عاصم «بل يؤثرون» بالياء على الغيبة <sup>(٤)</sup> ؛ تقديره : بل يؤثرون الأشقياء الحياة الدنيا ، وعلى الأول فيكون تأويلها بل تؤثرون أيها المسلمون الاستكثار من الدنيا ، على الاستكثار من الثواب ، وعن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية ، فقال : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة؟ لأن الدنيا حضرت وعجلت لنا طبياتها وطعامها وشرابها ، ولذاتها وبهجتها ، والآخرة غيبت عنا ، فأخذنا العاجل ، وتركنا الآجل <sup>(٥)</sup> ، وروى ثابت عن أنس قال : كنا مع أبي موسى في مسير ، والناس يتكلمون ويذكرون الدنيا ، قال أبو موسى : يا أنس ، إن هؤلاء يكاد أحدهم يفري الأديم بلسانه فرياً ، فتعال فلنذكر ربنا ساعة ، ثم قال : يا أنس ، ما ثبّر <sup>(٦)</sup> الناس ما بطأ بهم؟ قلت : الدنيا والشيطان والشهوات ، قال : لا ، ولكن عجلت الدنيا ، وغيبت الآخرة ، أما والله لو عابنوها ما عدلوا <sup>(٧)</sup> ولا ميلوا <sup>(٨)</sup> .

### ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَثَقَى﴾

أي والدار الآخرة ؛ أي الجنة ، ﴿خَيْرٌ﴾ أي أفضل ، ﴿وَأَثَقَى﴾ أي أدوم من الدنيا ، وقال النبي

(١) انظر تفسير ابن أبي حاتم : (١٢ / ٣٩٤) .

(٢) انظر الدر المشور (٦ / ٥٦٩) للسيوطي ، وتفسير ابن كثير (٨ / ٢٩٨) .

(٣) قراءة متواترة : تقريب النشر (ص ١٨٨) .

(٤) ضعيف جداً : الطبري (٣٠ / ١٦٧) بسند فيه محمد بن حميد وهو متهم بالكذب .

(٥) ثبّر : (١ / ٢٠٦) أبطأ وحبس ، وصد ، ومنع النهاية في غريب الحديث .

(٦) عدلوا : ساووا النهاية في غريب الحديث (٤ / ٣٨٢) .

(٨) ميلوا : شكوا وترددوا النهاية (٤ / ٤٣٠) .

ﷺ : « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع » صحيح، وقد تقدم (١) ، وقال مالك بن دينار: لو كانت الدنيا من ذهب يفتى، والآخرة من خزف يبقى، لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى، على ذهب يفتى، قال: فكيف والآخرة من ذهب يبقى، والدنيا من خزف يفتى؟!

### ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ﴿

قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ قال قتادة وابن زيد: يريد قوله: ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾، وقالوا: تنابعت كتب الله جل ثناؤه - كما تسمعون - أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا (٢) ، وقال الحسن ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ قال: كتب الله جل ثناؤه كلها، الكلبي: ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ من قوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ إلي آخر السورة؛ لحديث أبي ذر على ما يأتي، وروى عكرمة عن ابن عباس ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ قال: هذه السورة، وقال الضحاك: إن هذا القرآن لفي الصحف الأولى؛ أي الكتب الأولى (٣) ، ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ يعني: الكتب المنزلة عليهما، ولم يرد أن هذه الألفاظ بعينها في تلك الصحف، وإنما هو على المعنى؛ أي إن معنى هذا الكلام وارد في تلك الصحف، وروى الآجري من حديث أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: « كانت أمثالا كلها: أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردّها ولو كانت من فم كافر، وكان فيها أمثال: وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، يفكر فيها في صنع الله عز وجل إليه، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب، وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا إلا في ثلاث: تزود لمعاد، ومرامة لمعاش، ولذة في غير محرم، وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه، مقبلا على شأنه، حافظا للسانه، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعينه»، قال: قلت يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: كانت عبرا كلها: عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح! وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقبلها بأهلها كيف يطمئن إليها! وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لا يعمل! قال: قلت يا رسول الله، فهل في أيدينا شيء مما كان في يدي إبراهيم وموسى، مما أنزل الله عليك؟ قال: « نعم اقرأ يا أبا ذر: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ، وذكر الحديث (٤) .

(١) صحيح : وقد سبق .

(٢) صحيح إليهما : الطبري (٣٠ / ١٦٨) في تفسيره .

(٣) منقطع : بين الضحاك وابن عباس - رضي الله عنهما وانظر السليق .

(٤) ضعيف جدا : وفي إسناده متروك ، وقد سبق تخريجه كما عند ابن حبان (٣٦١) في صحيحه .

## سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾

﴿هَلْ﴾ بمعنى قد؛ كقوله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ [الإسراء: ١]؛ قاله قطرب، أي قد جاءك يا محمد حديث الغاشية؛ أي القيامة التي تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها؛ قاله أكثر المفسرين، وقال سعيد بن جبير<sup>(١)</sup> ومحمد بن كعب: الغاشية: النار تغشى وجوه الكفار؛ ورواه أبو صالح عن ابن عباس<sup>(٢)</sup>؛ ودليله قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقيل: تغشى الخلق، وقيل: المراد النفخة الثانية للبعث؛ لأنها تغشى الخلائق، وقيل الغاشية أهل النار يغشونها، ويقتحمون فيها، وقيل: معنى ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أي هذا لم يكن من علمك، ولا من علم قومك، قال ابن عباس: لم يكن أتاه قبل ذلك على هذا التفصيل المذكور ها هنا، وقيل: إنها خرجت مخرج الاستفهام لرسوله؛ ومعناه إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك؛ وهو معنى قول الكلبي<sup>(٣)</sup>.

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۖ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾

قال ابن عباس: لم يكن أتاه حديثهم، فأخبره عنهم، فقال: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة<sup>(٤)</sup>، ﴿خَاشِعَةٌ﴾ قال سفيان: أي ذليلة بالعذاب، وكل متضائل ساكن خاشع، يقال: خشع في صلته: إذا تذلل ونكس رأسه، وخشع الصوت: خفي؛ قال الله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [ط: ١٠٨]، والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه، وقال قتادة وابن زيد ﴿خَاشِعَةٌ﴾ أي في النار، والمراد وجوه الكفار كلهم؛ قاله يحيى بن سلام، وقيل: أراد وجوه اليهود والنصارى؛ قاله ابن عباس<sup>(٥)</sup>، ثم قال: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ فهذا في الدنيا؛ لأن الآخرة ليست دار عمل، فالمعنى: وجوه عاملة ناصبة في الدنيا ﴿خَاشِعَةٌ﴾ في الآخرة، قال أهل اللغة: يقال للرجل إذا دأب في سيره: قد عمل يعمل عملا، ويقال للسحاب إذا دام برقه: قد عمل يعمل عملا، وذا سحاب عمل، قال الهذلي:

يَحْتَىٰ شَأَهَا كَلِيلٌ مُّوَهْنَا عَمَلٌ      بَاتَتْ طَيْرَابَا وَيَاتُ اللَّيْلُ لَمْ يَنْسَمِ

﴿نَاصِبَةٌ﴾ أي تعب، يقال: نصب بالكسر ينصب نصبا: إذا تعب، ونصبا أيضا، وأنصبه غيره،

(١) ضعيف إلى سعيد بن جبير: تفسير الطبري (٣٠ / ١٧٠).

(٢) واه: أبو صالح كذاب في روايته، عن ابن عباس - رضي الله عنهما وانظر السابق.

(٣، ٤) ضعيفان: بنحوها عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وعن الكلبي وهما إسنادهان ضعيفان، ورواهما الشوكاني (٧ / ٤٧٧) في فتح القدير، وابن الجوزي (٦ / ١٥٠) في زاد المسير.

(٥) حسن بطرقة: ابن أبي حاتم (١٢ / ٣٩٣) في تفسيره من طريق علي بن أبي طلحة منقطعاً، ومن طريق شبيب ابن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس.

فروى الضحاك عن ابن عباس قال: هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله عز وجل، وعلى الكفر؛ مثل عبدة الأوثان، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم، لا يقبل الله جل ثناؤه منهم إلا ما كان خالصاً له (١).

وقال سعيد عن قتادة: «عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ» قال: تكبرت في الدنيا عن طاعة الله عز وجل، فأعملها الله وأنصبها في النار، بجر السلاسل الثقيل، وحمل الأغلال، والوقوف حفاة عراة في العرصات، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة (٢)، قال الحسن وسعيد بن جبير: لم تعمل لله في الدنيا، ولم تنصب له، فأعملها وأنصبها في جهنم (٣)، وقال الكلبي: يجرون على وجوههم في النار (٤)، وعنه وعن غيره: يكلفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب، بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض في النار؛ كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقائها في صعود من نار، وهبوطها في حذور منها؛ إلى غير ذلك من عذابها (٥)، وقاله ابن عباس، وقرا ابن محيصن وعيسى وحמיד، ورواها عبيد عن شبيل، عن ابن كثير « نَاصِبَةٌ » بالنصب على الحال، وقيل: على الدم، الباقي بالرفع على الصفة أو على إضمار مبتدأ، فيوقف على «خَاشِعَةٌ»، ومن جعل المعنى في الآخرة، جاز أن يكون خبراً بعد خبر عن «وَجُوهٌ»، فلا يوقف على «خَاشِعَةٌ»، وقيل «عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ» أي عاملة في الدنيا ناصبة في الآخرة، وعلى هذا يحتمل وجوه يومئذ عاملة في الدنيا، ناصبة في الآخرة، خاشعة، قال عكرمة والسدي: عملت في الدنيا بالمعاصي، وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم: هم الرهبان أصحاب الصوامع (٦)؛ وقاله ابن عباس، وقد تقدم في رواية الضحاك عنه، وروى عن الحسن قال: لما قدم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الشام أتاه راهب شيخ كبير متقهل، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى، فقال له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك؟ قال: هذا المسكين طلب أمراً فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، وقرأ قول الله عز وجل: «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ» (٧)، قال الكسائي: التقهل: رثاء الهيئة، ورجل متقهل: يابس الجلد سيئ الحال، مثل المتقحل، وقال أبو عمرو: التقهل: شكوى الحاجة، وأنشد:

لَعَوْا إِذَا لَاقِيَتْهُ تَقَهَّلًا

والقهل: كفران الإحسان، وقد قهل يقهله قهلاً: إذا أثنى ثناء قبيحاً، وأقهل الرجل تكلف ما يعيبه وندس نفسه، وانقهل ضعف وسقط؛ قاله الجوهري، وعن علي رضي الله عنه أنهم أهل حروراء؛ يعني الخوارج الذين ذكرهم رسول الله ﷺ فقال: «تحقرن صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وأعمالكم مع أعمالهم، يرفقون من الدين كما ترق السهم من الرمية...»

(١) منقطع: بين الضحاك وابن عباس - رضي الله عنهما وانظر التالي .

(٢) صحيح: الطبري (١٧١ / ٣٠) في تفسيره، وابن أبي حاتم (٣٩٣ / ١٢) في تفسيره .

(٣) صحيح: كذا في فتح القدير (٤٧٧ / ٧)، وعند الطبري في تفسيره بسند صحيح إلى الحسن (١٧١ / ٣٠) .

(٤، ٥) فتح القدير (٤٧٧ / ٧) للشوكاني .

(٦) هذا قول ابن عباس من رواية الثعلبي، عن أبي الضحى، عن ابن عباس كما في فتح الباري (٧٠٠ / ٨) .

(٧) منقطع: فالحسن لم يدرك زمن عمر - رضي الله عنه، ورواه الحاكم (٥٦٧ / ٢) في المستدرک بسند منقطع من

طريق أبي عمران الجوني ولم يدرك عمر - رضي الله عنه .

(١) الحديث .

## ﴿ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴾

قوله تعالى: ﴿ تَصَلَّى ﴾ أي يصيبها صلاؤها وحرها، ﴿ حَامِيَةً ﴾ شديدة الحر؛ أي قد أوقدت وأحميت المدة الطويلة، ومنه حمى النهار بالكسر، وحمى التنور حميا فيهما؛ أي اشتد حره، وحكى الكسائي: اشتد حمى الشمس وحموها: بمعنى، وقرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب « تَصَلَّى ﴾ بضم التاء (٢)، الباقون بفتحها، وقرأ « تَصَلَّى ﴾ بالتشديد، وقد تقدم القول فيها في ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق: ١]، الماوردي: فإن قيل فما معنى وصفها بالحمي، وهي لا تكون إلا حامية، وهو أقل أحوالها، فما وجه المبالغة بهذه الصفة الناقصة؟ قيل: قد اختلف في المراد بالحامية ها هنا على أربعة أوجه: أحدها: أن المراد بذلك أنها دائمة الحمي، وليست كنار الدنيا التي ينقطع حميها بانطفائها، الثاني: أن المراد بالحامية أنها حمى من ارتكاب المحظورات، وانتهاك المحارم؛ كما قال النبي ﷺ: « إن لكل ملك حمى، وإن حمى الله محارمه، ومن يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه » (٣)، الثالث: أنها تحمي نفسها عن أن تطاق ملامستها، أو ترام ملامستها؛ كما يحمي الأسد عرينه؛ ومثله قول النابغة:

تَعْدُو الذُّنُوبُ عَلَى مَنْ لَا كِلَابَ لَهُ وَتَتَّقِي صَوْلَةَ الْمَسْتَأْسِدِ الْحَامِي

الرابع: أنها حامية حمى غيظ و غضب؛ مبالغة في شدة الانتقام، ولم يرد حمى جرم وذات؛ كما يقال: قد حمى فلان: إذا اغتاض و غضب عند إرادة الانتقام، وقد بين الله تعالى بقوله هذا المعنى فقال: ﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [الملك: ٨] .

## ﴿ تَسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ ﴾

الآتي: الذي قد انتهى حره؛ من الإيناء، بمعنى التأخير، ومنه « آتيت وآذيت » (٤)، وآناه يؤنيه إيناء، أي أحره وجسه وأبطأه، ومنه ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمِ آنٍ ﴾ [الرحمن: ٤٤]، وفي التفاسير ﴿ مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ ﴾ أي تناهى حرها؛ فلو وقعت نقطة منها على جبال الدنيا لذابت، وقال الحسن: ﴿ آتِيَةٍ ﴾ أي حرها أدرك؛ أوقدت عليها جهنم منذ خلقت، فدفعوا إليها وردا عطاشا (٥)، وعن ابن أبي نجیح عن مجاهد قال: بلغت أنها، وحن شربها (٦).

(١) متفق عليه: البخاري (٦٩٣٠) في استابة المرتدين، ومسلم (١٠٦٦) في الزكاة .

(٢) قراءة متواترة: كما في تقريب النشر (ص ١٨٨) .

(٣) متفق عليه: قطعة من حديث: « إن الحلال بين » ورواه البخاري (٥٢) في الإيمان، ومسلم (١٥٩٩) في

المساقاة عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه .

(٤) صحيح: أبو داود (١١١٨) في الصلاة، عن عبد الله بن بسر، وصححه الألباني هناك .

(٥) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٣٠ / ١٧٢) في تفسيره .

(٦) صحيح إليه: الطبري (٣٠ / ١٧٢) في تفسيره .

## ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ أي: لأهل النار، ﴿طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ لما ذكر شرابهم ذكر طعامهم، قال عكرمة ومجاهد: الضريع: نبت ذو شوكة لاصق بالأرض، تسميه قريش الشبرق إذا كان رطباً، فإذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه؛ وهو سم قاتل، وهو أحب الطعام وأشنع؛ على هذا عامة المفسرين<sup>(١)</sup>، إلا أن الضحاح روى عن ابن عباس قال: هو شيء يرمى به البحر، يسمى الضريع، من أقوات الأنعام لا الناس، فإذا وقعت فيه الإبل لم تشيع، وهلكت هزلاً<sup>(٢)</sup>، والصحيح ما قاله الجمهور: إنه نبت؛ قال أبو ذؤيب:

رعى الشبرق الریان حتى إذا ذوى وعاد ضريعاً بأن منه النّحائصُ

وقال الهذلي وذكر إيلاً وسوء مراعاها:

وحسن في هزم الضريع فكلها حذباً دامية اليدين حرودُ

وقال الخليل: الضريع: نبات أخضر منتن الريح، يرمى به البحر، وقال الوالي عن ابن عباس: هو شجر من نار<sup>(٣)</sup>، ولو كانت في الدنيا لأحرقت الأرض وما عليها، وقال سعيد بن جبير: هو الحجارة<sup>(٤)</sup>، وقاله عكرمة، والأظهر أنه شجر ذو شوكة حسب ما هو في الدنيا، وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «الضريع: شيء يكون في النار، يشبه الشوك، أشد مرارة من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأحر من النار، سماه الله ضريعاً»<sup>(٥)</sup>، وقال خالد بن زياد: سمعت المتوكل بن حمدان يسأل عن هذه الآية ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ قال: بلغني أن الضريع شجرة من نار جهنم، حملها القيح والدم، أشد مرارة من الصبر، فذلك طعامهم.

وقال الحسن: هو بعض ما أخفاه الله من العذاب<sup>(٦)</sup>، وقال ابن كيسان: هو طعام يضرعون عنده ويذلون، ويتضرعون منه إلى الله تعالى، طلباً للخلاص منه؛ فسمي بذلك، لأن أكله يضرع في أن يعفى منه، لكراهته وخشونته، قال أبو جعفر النحاس: قد يكون مشتقاً من الضارع، وهو الذليل؛ أي ذو ضراعة، أي من شربه ذليل تلحقه ضراعة، وعن الحسن أيضاً: هو الزقوم، وقيل: هو واد في جهنم، فالله أعلم، وقد قال الله تعالى في موضع آخر ﴿لَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾<sup>(٧)</sup> وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ﴾ [الحاقة: ٣٥ - ٣٦]، وقال هنا ﴿إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ وهو غير الغسلين، ووجه الجمع أن النار دركات؛ فمنهم من طعامه الزقوم، ومنهم من طعامه الغسلين، ومنهم من طعامه الضريع، ومنهم من شرابه الحميم، ومنهم من شرابه الصديد، قال الكلبي: الضريع في درجة ليس فيها غيره، والزقوم في درجة

(١) حسن إليهما: فطرقة خلط فيها الطبري سقيمها بضعيفها لكنها تحسن، وانظر: تفسيره (١٧٢ / ٣٠).

(٢) منقطع: بين الضحاح وابن عباس وانظر السابق.

(٣) منقطع: بين علي بن أبي طلحة الوالي وابن عباس - رضي الله عنهما وانظر السابق.

(٤) حسن إليه: الطبري (١٧٣ / ٣٠).

(٥) وإه ولعله أن يكون موضوعاً: عزاه السيوطي (٦ / ٥٧٤) في الدر المنثور لابن مردويه، عن ابن عباس، وقال: وإه.

(٦) انظر: فتح القدير (٧ / ٤٧٨) للشوكاني، وابن أبي حاتم (١٢ / ٤٩٤) في تفسيره.

أخرى، ويجوز أن تحمل الآيتان على حالتين كما قال ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آناً﴾ [الرحمن: ٤٤]، القتيبي: ويجوز أن يكون الضريع وشجرة الزقوم نبتين من النار، أو من جوهر لا تأكله النار، وكذلك سلاسل النار وأغلالها وعقاربها وحياتها، ولو كانت على ما نعلم ما بقيت على النار، قال: وإنما دلنا الله على الغائب عنده، بالحاضر عندنا؛ فالأسماء متفقة الدلالة، والمعاني مختلفة، وكذلك ما في الجنة من شجرها وفرشها، القشيري: وأمثل من قول القتيبي أن نقول: إن الذي يقي الكافرين في النار ليدوم عليهم العذاب، يقي النبات وشجرة الزقوم في النار، ليعذب بها الكفار، وزعم بعضهم أن الضريع بعينه لا ينبت في النار، ولا أنهم يأكلونه، فالضريع من أقوات الأنعام، لا من أقوات الناس، وإذا وقعت الإبل فيه لم تشبع، وهلكت هزلا، فأراد أن هؤلاء يفتاتون بما لا يشبعهم، وضرب الضريع له مثلا، أنهم يعذبون بالجوع كما يعذب من قوته الضريع، قال الترمذي الحكيم: وهذا نظر سقيم من أهله وتأويل دنيء، كأنه يدل على أنهم تحيروا في قدرة الله تعالى، وأن الذي أنبت في هذا التراب هذا الضريع قادر على أن ينبت في حريق النار، جعل لنا في الدنيا من الشجر الأخضر نارا، فلا النار تحرق الشجر، ولا رطوبة الماء في الشجر تطفئ النار؛ فقال تعالى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، وكما قيل حين نزلت ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء: ٩٧]: قالوا يا رسول الله، كيف يمشون على وجوههم؟ فقال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»<sup>(١)</sup>، فلا يتحير في مثل هذا إلا ضعيف القلب، أو ليس قد أخبرنا أنه ﴿كُلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]، وقال: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانَ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال ﴿إِن لَّدَيْنَا أَنْكَالًا﴾ أي: قيودا، ﴿وَجَحِيمًا ۝٢٧﴾ ﴿وَطَعَامًا ذَا غَمَّةٍ﴾ [الزمل: ١٢] قيل: ذا شوك، وإنما يتلون عليهم العذاب بهذه الأشياء.

﴿لَّا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِّنْ جُوعٍ ۝٢٨﴾

يعني الضريع لا يسمن آكله، وكيف يسمن من يأكل الشوك؟! قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية قال المشركون: إن إبلنا لتسمن بالضريع، فنزلت ﴿لَّا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِّنْ جُوعٍ﴾، وكذبوا، فإن الإبل إنما ترعاه رطبا، فإذا بيس لم تأكله، وقيل: اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبات النافع، لأن المضارعة المشابهة، فوجدوه لا يسمن ولا يغني من جوع.

﴿وَجُودٌ يُؤْمِدُ نَاعِمَةً ۝٢٩﴾ ﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ۝٣٠﴾ ﴿فِي جَنَّةٍ نَّارِيَةٍ ۝٣١﴾

قوله تعالى ﴿وَجُودٌ يُؤْمِدُ نَاعِمَةً﴾ أي ذات نعمة، وهي وجوه المؤمنين؛ نعمت بما عاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح، ﴿لَسَعِيهَا﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا، ﴿رَاضِيَةٌ﴾ في الآخرة حين أعطيت الجنة بعملها، ومجازة: لثواب سعيها راضية، وفيها وار مضمرة المعنى: ووجوه يومئذ، للفصل بينها وبين الوجوه المتقدمة، والوجوه عبارة عن الأنفس، ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: مرتفعة، لأنها فوق السموات حسب ما تقدم، وقيل: عالية القدر، لأن فيها ما تشبهه الأنفس وتلد الأعين، وهم

(١) صحيح: وسبق تخريجه مرارا.

فيها خالدون .

### ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴾

قوله تعالى: ﴿لَاغِيَةً﴾ أي كلاما ساقطا غير مرضي، وقال: ﴿لَاغِيَةً﴾، واللغو واللغا واللاغية: بمعنى واحد، قال:

عن اللُّغَا ورفث التَّكَلُّم (١)

وقال الفراء والأخفش أي لا تسمع فيها كلمة لغو، وفي المراد بها ستة أوجه: أحدها: يعني كذبا وبهتاناً وكفراً بالله عز وجل؛ قاله ابن عباس (٢)، الثاني: لا باطل ولا إثم؛ قاله قتادة (٣)، الثالث: أنه الشتم؛ قاله مجاهد (٤)، الرابع: المعصية؛ قاله الحسن (٥)، الخامس: لا يسمع فيها حالف يحلف بكذب؛ قاله الفراء، وقال الكلبي: لا يسمع في الجنة حالف يمين برة ولا فاجرة، السادس: لا يسمع في كلامهم كلمة تلغى؛ لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم؛ قاله الفراء أيضاً، وهو أحسنها لأنه يعم ما ذكر، وقرأ أبو عمرو وابن كثير «لا يسمع» بياء غير مسمى (٦) الفاعل، وكذلك نافع، إلا أنه بالتاء (٧) المضمومة؛ لأن اللاغية اسم مؤنث فأنث الفعل لتأنيثه، ومن قرأ بالياء فلائنه حال بين الاسم والفعل الجار والمجرور، وقرأ الباقون بالتاء مفتوحة ﴿لَاغِيَةً﴾ نصاً على إسناد ذلك للوجه، أي: لا تسمع الوجوه فيها لاغية.

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ ﴿ وَمَنَارِقٌ مَّصْفُوفَةٌ ﴾ ﴿ وَزَرَائِبُ مَبْنُوتَةٌ ﴾

قوله تعالى ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي: بماء مندفق، وأنواع الأشربة اللذيذة على وجه الأرض من غير أهدود، وقد تقدم في سورة الإنسان أن فيها عيوناً، فـ ﴿عَيْنٌ﴾: بمعنى عيون، والله أعلم، ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي عالية، وروي أنه كان ارتفاعها قدر ما بين السماء والأرض، ليرى ولي الله ملكه حوله، ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي أباريق وأوان، والإبريق: هو ماله عروة وخرطوم، والكوب: إناء ليس له عروة ولا خرطوم، وقد تقدم هذا في سورة «الزخرف» (٨) وغيرها، ﴿نَمَارِقٌ﴾ أي وسائد، الواحدة نمرقة، ﴿مَّصْفُوفَةٌ﴾ أي واحدة إلى جنب الأخرى، قال الشاعر:

وإنا لننجري الكأس بين شروبنا وبين أبي قابوس فوق النمارق

(١) عجز بيت للعجاج، وصدرة:

وربُّ أسرابٍ حجاجٍ كظم

(٢) ضعيف: الطبري (٣٠ / ١٧٤) في تفسيره من طريق العوفي.

(٣) صحيح إلى قتادة: الطبري (٣٠ / ١٧٤) في تفسيره.

(٤) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٣٠ / ١٧٤) في تفسيره.

(٥) انظر الأقوال كلها في فتح القدير (٧ / ٤٧٩) للشوكاني.

(٦، ٧) قرأتان متواترتان: انظر الإقناع (٢ / ٨٠٩).

(٨) عند الآية (٧١).

وقال آخر:

كهولٌ وشبانٌ حسانٌ وجوهُهُم على سُررٍ مَصْفُوفَةٍ ونمارقٍ  
وفي «الصحيح»: النُمرقُ والتمرقَةُ: وسادةٌ صغيرة، وكذلك التمرقة بالكسر لغة حكاها  
يعقوب، وربما سماوا الطنفسة التي فوق الرجل نمرقة؛ عن أبي عبيد، «وزرأبي مَبْثُوثَةٌ» قال أبو عبيدة:  
الزرأبي: البسط، وقال ابن عباس: الزرأبي: الطنافس التي لها حمل رقيق، واحدتها: زرية (١)؛  
وقاله الكلبي والفراء، والمبثوثة: المبسوطة؛ قاله قتادة، وقيل: بعضها فوق بعض؛ قاله عكرمة، وقيل:  
كثيرة؛ قاله الفراء (٢)، وقيل: متفرقة في المجالس؛ قاله القتيبي.

قلت: هذا أصوب، فهي كثيرة متفرقة، ومنه «وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ» [البقرة: ١٦٤] وقال أبو  
بكر الأنباري: وحدثنا أحمد بن الحسين، قال حدثنا حسين بن عرفة، قال حدثنا عمار بن محمد،  
قال: صليت خلف منصور بن المعتمر، فقرأ: «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ»، وقرأ فيها: «وزرأبي مَبْثُوثَةٌ»  
متكئين فيها ناعمين .

### ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾

قال المفسرون: لما ذكر الله عز وجل أمر أهل الدارين، تعجب الكفار من ذلك، فكذبوا وأنكروا؛  
فذكرهم الله صنعته وقدرته؛ وأنه قادر على كل شيء، كما خلق الحيوانات والسماء والأرض، ثم ذكر  
الإبل أولاً، لأنها كثيرة في العرب، ولم يروا الفيلة، فنبههم جل ثناؤه على عظيم من خلقه؛ قد ذلله  
للصغير، يقوده وينيحه وينهضه ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك، فينهض بثقل حمله، وليس  
ذلك في شيء من الحيوان غيره، فأراهم عظيماً من خلقه، مسخراً للصغير من خلقه؛ يدلهم بذلك على  
توحيده وعظيم قدرته، وعن بعض الحكماء: أنه حدث عن البعير وبديع خلقه، وقد نشأ في بلاد لا  
إبل فيها؛ ففكر ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق، وحين أراد بها أن تكون سفائن البر، صبرها  
على احتمال العطش؛ حتى إن إظماءها ليرتفع إلى العشر فصاعداً، وجعلها ترعى كل شيء نابت في  
البراري والمفاوز، مما لا يرعاه سائر البهائم، وقيل: لما ذكر السرر المرفوعة قالوا: كيف نصعدوها؟ فأنزل  
الله هذه الآية، وبين أن الإبل تبرك حتى يحمل عليها ثم تقوم؛ فكذلك تلك السرر تتطامن ثم ترتفع،  
قال معناه قتادة ومقاتل وغيرهما، وقيل: الإبل هنا انقطع العظيمة من السحاب؛ قاله المبرد: قال  
الثعلبي: وقيل في الإبل هنا: السحاب، ولم أجد لذلك أصلاً في كتب الأئمة.

قلت: قد ذكر الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب، قال أبو عمرو: من قرأها «أَفَلَا يَنْظُرُونَ  
إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ» بالتخفيف: عنى به البعير، لأنه من ذوات الأربع. يبرك فتحمل عليه الحمولة،  
وغيره من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم، ومن قرأها بالثقل فقال: «الْإِبِلِ»، عنى بها  
السحاب التي تحمل الماء للمطر، وقال الماوردي (٣): وفي الإبل وجهان: أحدهما: وهو أظهرهما

(١) ذكره البغوي (٨ / ٤٠٩) في تفسيره .

(٢) معاني القرآن (٣ / ٢٥٨) للفراء .

(٣) انظر: تفسير الماوردي (٦ / ٢٦٢) المسمى بالنكت والعيون .

وأشهرهما: أنها الإبل من النعم، الثاني: أنها السحاب، فإن كانه المراد بها السحاب، فلما فيها من الآيات الدالة على قدرته، والمنافع العامة لجميع خلقه، وإن كان المراد بها الإبل من النعم، فلأن الإبل أجمع للمنافع من سائر الحيوان؛ لأن ضرابه أربعة: حلوبة، وركوبة، وأكولة، وحمولة، والإبل تجمع هذه الخلال الأربع؛ فكانت النعمة بها أعم، وظهور القدرة فيها أتم، وقال الحسن: إنما خصها الله بالذكر لأنها تاكل النوى والقَتَّ، وتخرج اللبن، وسئل الحسن أيضا عنها وقالوا: الفيل أعظم في الأعجوبة: فقال: العرب بعيدة العهد بالفيل، ثم هو خنزير لا يؤكل لحمه، ولا يركب ظهره، ولا يحلب دمه (١)، وكان شريح يقول: اخرجوا بنا إلى الكناسة حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت (٢)، والإبل: لا واحد لها من لفظها، وهي مؤنثة؛ لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها، إذا كانت لغير الآدميين، فالتأنيث لها لازم، وإذا صغرته دخلتها الهاء، فقلت: أبيلة وغنيمه، ونحو ذلك، وربما قالوا للإبل: إبل، بسكون الباء للتخفيف، والجمع: آبال.

﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٣١﴾ وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٣٢﴾ وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ أي رفعت عن الأرض بلا عمد، وقيل: رفعت، فلا ينالها شيء، ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي كيف نصبت على الأرض، بحيث لا تزول؛ وذلك أن الأرض لما دحيت مادتها، فأرساها بالجبال، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي بسطت ومدت، وقال أنس: صليت خلف علي رضي الله عنه، فقرأ «كيف خلقت» و «رفعت» و «نصبت» و «سطحت»، بضم التاءات (٣)؛ أضاف الضمير إلى الله تعالى، وبه كان يقرأ محمد بن السميع وأبو العالية؛ والمفعول محذوف، والمعنى خلقتها، وكذلك سائرهما، وقرأ الحسن وأبو حيوة وأبو رجاء «سَطَّحَتْ» بتشديد الطاء وإسكان التاء، وكذلك قرأ الجماعة، إلا أنهم خففوا الطاء، وقدم الإبل في الذكر، ولو قدم غيرها لجاز، قال القشيري: وليس هذا مما يطلب فيه نوع حكمة، وقد قيل: هو أقرب إلى الناس في حق العرب، لكثرتها عندهم، وهم من أعرف الناس بها، وأيضا: مرافق الإبل أكثر من مرافق الحيوانات الأخرى؛ فهي مأكولة، ولبنها مشروب، وتصلح للحمل والركوب، وقطع المسافات البعيدة عليها، والصبر على العطش، وقلة العلف، وكثرة الحمل، وهي معظم أموال العرب، وكانوا يسيرون على الإبل منفردين مستوحشين عن الناس، ومن هذا حاله تفكر فيما يحضره، فقد ينظر في مركوبه، ثم يد بصره إلى السماء ثم إلى الأرض، فأمروا بالنظر في هذه الأسماء، فإنها أدل دليل على الصانع المختار القادر.

(١) كذا في تفسير البغوي (٨/ ٤١٠).

(٢) في إسناده مجهول: فقد رواه أبو إسحاق عمَّن سمع شريحا كما في تفسير الطبري (٣٠/ ٧٦).

والكناسة: إما أن يكون أراد بها مكان القمامة. أو محلة كان بنو أسد وبنو تميم يطرحون بها كناساتهم في

الكوفة معجم البلدان (٤/ ٥٤٦).

(٣) هذه قراءات غير متواترة.

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٣١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٣٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٣٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أي فعضمهم يا محمد وخوفهم، ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ أي واعظ، ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ أي بمسلط عليهم فتقتلهم، ثم نسختها آية السيف، وقرا هارون الأعور: ﴿ بِمُصَيِّرٍ ﴾ بفتح الطاء، و﴿ الْمُصَيِّرُونَ ﴾ [الطور: ٢٧]، وهي لغة تميم، وفي « الصحاح » الميصر والمصيصر: المسلط على الشيء، ليشرق عليه، ويتعهد أحواله، ويكتب عمله، وأصله من السطر، لأن من معنى السطر ألا يتجاوز، فالكتاب سطر، والذي يفعله مسطر ومسيطر؛ يقال: سيطرت علينا، وقال تعالى: ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾، وسطره أي صرعه، ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ استثناء منقطع، أي لكن من تولى عن الوعظ والتذكير، ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ وهي جهنم الدائم عذابها، وإنما قال: ﴿ الْأَكْبَرَ ﴾ لأنهم عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والأسر والقتل، ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ ﴿ (١) ﴾، وقيل: هو استثناء متصل، والمعنى: لست بمسلط إلا على من تولى وكفر، فأنت مسلط عليه بالجهاد، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر، فلا نسخ في الآية على هذا التقدير، وروي أن عليا أتى برجل ارتد، فاستتابه ثلاثة أيام، فلم يعاود الإسلام، فضرب عنقه، وقرا ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾، وقرا ابن عباس وقتادة: ﴿ أَلَا ﴾ على الاستفتاح والتنبية، كقول امرئ القيس:

أَلَا رَبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُمْ صَالِحٌ

و ﴿ مِنْ ﴾ على هذا: للشرط، والجواب ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ ﴾ والمبتدأ بعد الفاء مضمر، والتقدير: فهو يعذبه الله، لأنه لو أريد الجواب بالفعل الذي بعد الفاء لكان: ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ يعذبه الله، ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ أي رجوعهم بعد الموت، يقال: آب يؤوب؛ أي رجع، قال عبيد:

وَكُلُّ ذِي غِيبةٍ يُؤوبُ      وَغَائِبُ المَوْتِ لَا يُؤوبُ

وقرا أبو جعفر « إِيَابُهُمْ » بالتشديد<sup>(٢)</sup>، قال أبو حاتم: لا يجوز التشديد، ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام، وقيل: هما لغتان بمعنى، الزمخشري: وقرا أبو جعفر المدني: « إِيَابُهُمْ » بالتشديد؛ ووجهه أن يكون فيعالا: مصدر أيب، قيل: من الإياب، أو أن يكون أصله إوابا فعلا من أوب، ثم قيل: إيوابا كديوان في دوان، ثم فعل [به] ما فعل بأصل سيد ونحوه.

(١) إما أن تكون قراءة تفسيرية وإلا فهي شاذة، وانظر: المحرر الوجيز (١٦ / ٢٩١) لابن عطية - رحمه الله .

(٢) هي قراءة متواترة: كما في تقريب النشر (ص١٨٨) .

## سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ﴾ وَتِيَالٍ عَشْرٍ ﴿١﴾

قوله تعالى ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم بالفجر، ﴿وَتِيَالٍ عَشْرٍ﴾ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ أقسام خمسة، واختلف في ﴿وَالْفَجْرِ﴾، فقال قوم: الفجر هنا: انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم؛ قاله علي وابن الزبير وابن عباس رضي الله عنهم (١)، وعن ابن عباس أيضا: أنه النهار كله، وعبر عنه بالفجر لأنه أوله (٢)، وقال ابن محيصة عن عطية عن ابن عباس: يعني الفجر يوم المحرم (٣)، ومثله قال قتادة، قال: هو فجر أول يوم من المحرم، منه تنفجر السنة، وعنه أيضا: صلاة الصبح، وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال ﴿وَالْفَجْرِ﴾: يريد صبيحة يوم النحر؛ لأن الله تعالى جل ثناؤه جعل لكل يوم ليلة قبله؛ إلا يوم النحر لم يجعل له ليلة قبله ولا ليلة بعده؛ لأن يوم عرفة له ليلتان: ليلة قبله وليلة بعده، فمن أدرك الموقف ليلة بعد عرفة، فقد أدرك الحج إلى طلوع الفجر، فجر يوم النحر (٤)، وهذا قول مجاهد، وقال عكرمة ﴿وَالْفَجْرِ﴾ قال: انشقاق الفجر من يوم جمع، وعن محمد بن كعب القرظي ﴿وَالْفَجْرِ﴾ آخر أيام العشر، إذا دفعت من جمع، وقال الضحاك: فجر ذي الحجة، لأن الله تعالى قرن الأيام به فقال: ﴿وَتِيَالٍ عَشْرٍ﴾ أي: ليلال عشر من ذي الحجة (٥)، وكذا قال مجاهد والسدي والكلبي في قوله: ﴿وَتِيَالٍ عَشْرٍ﴾ هو عشر ذي الحجة (٦)، وقاله ابن عباس، وقال مسروق هي العشر التي ذكرها الله في قصة موسى عليه السلام ﴿وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وهي أفضل أيام السنة، وروى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ (١) وَتِيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ قال: «عشر الأضحى» (٧) فهي ليلال عشر على هذا القول؛ لأن ليلة يوم النحر داخلة فيه، إذ قد خصها الله بأن جعلها موقفا لمن لم يدرك الوقوف يوم عرفة، وإنما نكرت ولم تعرف لفضيلتها على غيرها، فلو عرفت لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير، فنكرت من بين ما أقسم به للفضيلة التي ليست لغيرها، والله أعلم، وعن ابن عباس أيضا: هي العشر الأواخر من رمضان؛ وقاله الضحاك، وقال ابن عباس أيضا ويمن والطبري: هي العشر الأول من المحرم التي عاشرها يوم

(١) (٢) صحيح: قول ابن عباس رواه الحاكم بسند صحيح (٢/ ٥٦٨) في المستدرک، وبه رواه البيهقي (٣/ ٣٥٢)

في شعب الإيمان، والطبري (٣٠/ ١٨٠) في تفسيره.

(٣) ضعيف: لضعف عطية العوفى، وكذا رواه الطبري (٣٠/ ١٨١) من طريق العوفيين.

(٤) إن كان عطاء هذا هو الخراساني فالحديث ضعيف وإن كان ابن رباح فهو صحيح وانظر السابق.

(٥) (٦) انظر هذه الأقوال عند السيوطي (٦/ ٥٧٢) في الدر المنثور.

(٧) وضعه الألباني: النسائي (١١٦٧٢) في الكبرى، وانظر: ضعيف الجامع (٣٨٦٢).

عاشوراء، وعن ابن عباس ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ بالإضافة يريد: وليالي أيام عشر (١).

### ﴿وَأَشْفَعِ وَالْوَتْرَ﴾

الشفع: الاثنان، والوتر: الفرد، واختلف في ذلك؛ فروي مرفوعاً عن عمران بن الحصين عن النبي ﷺ أنه قال «الشفع والوتر: الصلاة، منها شفيع، ومنها وتر» (٢)، وقال جابر بن عبد الله: قال النبي ﷺ: «وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ» قال: «هو الصبح، وعشر النحر، والوتر يوم عرفة، والشفع: يوم النحر» (٣)، وهو قول ابن عباس وعكرمة، واختاره النحاس، وقال: حديث أبي الزبير عن جابر هو الذي صح عن النبي ﷺ، وهو أصح إسناداً من حديث عمران بن حصين (٤)، فيوم عرفة وتر، لأنه تاسعها، ويوم النحر شفيع لأنه عاشورها، وعن أبي أيوب قال: سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَأَشْفَعِ وَالْوَتْرَ﴾ فقال: «الشفع: يوم عرفة ويوم النحر، والوتر ليلة يوم النحر» (٥)، وقال مجاهد وابن عباس أيضاً: الشفع خلقه، قال الله تعالى ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ: ٨] والوتر هو الله عز وجل، فقيل لمجاهد: أترويه عن أحد؟ قال: نعم، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ (٦)، ونحوه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة، قالوا: الشفع: الخلق (٧)، قال الله تعالى ﴿وَمَنْ كَلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]: الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلال، والنور والظلمة، والليل والنهار، والحر والبرد، والشمس والقمر، والصيف والشتاء، والسماء والأرض، والجن والإنس، والوتر: هو الله عز وجل، قال جل ثناؤه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الله الصمد] [الإخلاص: ٢]، وقال النبي ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، والله وتر يحب الوتر» (٨)، وعن ابن عباس أيضاً: الشفع: صلاة الصبح والوتر: صلاة المغرب، وقال الربيع بن أنس وأبو العالية: هي صلاة المغرب، الشفع فيها ركعتان، والوتر الثالثة، وقال ابن الزبير: الشفع: يوماً منى: الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر الوتر؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِيْمَانٌ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِيْمَانٌ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وقال الضحاك: الشفع: عشر ذي الحجة، والوتر: أيام منى الثلاثة، وهو قول عطاء، وقيل: إن الشفع والوتر: آدم وحواء؛ لأن آدم كان فرداً فشفع بزوجه حواء، فصار شفعا بعد

(١) واختيار العلماء ومنهم الطبري أنها عشر ذي الحجة، انظر تفسير الطبري (٣٠ / ١٨٢)، والبغوي (٨ / ٤١٢) في تفسيره، وفتح القدير (٧ / ٤٨٣) للشوكاني.

(٢) ضعيف: الترمذي (٣٣٤٢) في التفسير وضعفه الألباني هناك، ورواه أحمد (٤ / ٤٣٧)، (٤٤٢) في المسند.

(٣) ضعيف: انظر النسائي (١١٦٧٢) في الكبرى، وانظر: ضعيف الجامع (٣٨٦٢)، والبيهقي (٧ / ١٣٧) في المنجم وعزاه للبخاري وأحمد، وقال: «ورجالهما رجال الصحيح غير عباس بن عتبة وهو ثقة».

وحديث عمران ضعيف رواه الترمذي (٣٣٥٣) في التفسير.

(٥) ضعيف جداً إن لم يكن موضوعاً: البيهقي (٧ / ١٣٧) في المنجم، وقال: «رواه انطرباني في حديث طويل، وفيه واصل بين السائب وهو متروك».

(٦) لم أجده إلا موقوفاً: الطبري بسند صحيح (٣٠ / ١٨٣) في تفسيره.

(٧) هذه الأسانيد كلها عند الطبري (٣٠ / ١٨٣) في تفسيره، والبغوي (٧ / ٤٨٣)، والنسوي (٦ / ٥٨١ - ٥٨٣) في الدر المنثور.

(٨) متفق عليه: البخاري (٧٣٩٢) في التوحيد، ومسلم (٢٦٧٧) في الذكر والدعاء.

وتر، رواه ابن أبي نجیح، وحكاه القشيري عن ابن عباس، وفي رواية: الشفع: آدم وحواء، والوتر هو الله تعالى، وقيل: الشفع والوتر: الخلق؛ لأنهم شفع ووتر، فكانه أقسم بالخلق.

وقد يقسم الله تعالى بأسمائه وصفاته لعلمه، ويقسم بأفعاله لقدرته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [الليل: ٢٣]، ويقسم بمفعولاته، لعجائب صنعته؛ كما قال: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥]، ﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ﴾ [الطارق: ١]، وقيل: الشفع: درجات الجنة، وهي ثمان، والوتر، دركات النار؛ لأنها سبعة، وهذا قول الحسين بن الفضل؛ كانه أقسم بالجنة والنار، وقيل: الشفع: الصفا والمروة، والوتر: الكعبة، وقال مقاتل بن حيان: الشفع: الأيام والليالي، والوتر: اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة، وقال سفيان بن عيينة: الوتر: هو الله، وهو الشفع أيضا؛ لقوله تعالى ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، وقال أبو بكر الوراق: الشفع: تضاد أوصاف المخلوقين: العز والذل، والقدرة والعجز، والقوة والضعف، والعلم والجهل، والحياة والموت، والبصر والعمى، والسمع والصمم، والكلام والخرس، والوتر: انفراد صفات الله تعالى: عز بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت، وبصر بلا عمى، وكلام بلا خرس، وسمع بلا صمم، وما وازاها، وقال الحسن: المراد بالشفع والوتر: العدد كله؛ لأن العدد لا يخلو عنهما، وهو إقسام بالحساب، وقيل: الشفع: مسجدا مكة والمدينة، وهما الحرمان، والوتر: مسجد بيت المقدس<sup>(١)</sup>، وقيل: الشفع: القوان بين الحج والعمرة، أو التمتع بالعمرة إلى الحج، والوتر: الأفراد فيه، وقيل: الشفع: الحيوان؛ لأنه ذكر وأنثى، والوتر: الجماد، وقيل: الشفع: ما ينمي، والوتر: ما لا ينمي، وقيل غير هذا، وقرأ ابن مسعود وأصحابه والكشائي وحمزة وخلف «والوتر» بكسر الواو، والباقون «بفتح الواو»<sup>(٢)</sup>، وهما لغتان بمعنى واحد، وفي «الصحاح»: الوتر بالكسر: الفرد، والوتر بفتح الواو: الذحل، هذه لغة أهل العالية، فأما لغة أهل الحجاز فبالضد منهم، فأما تميم فبالكسر فيهما.

### ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسْرٌ لِذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ وهذا قسم خامس، وبعد ما أقسم بالليالي العشر على الخصوص، أقسم بالليل على العموم، ومعنى ﴿يَسْرِ﴾ أي: يسرى فيه؛ كما يقال: ليل نائم، ونهار صائم، قل:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنايم

ومنه قوله تعالى ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبا: ٣٣]، وهذا قول أكثر أهل المعاني، وهو قول القتيبي والأخفش، وقال أكثر المفسرين: معنى ﴿يَسْرِ﴾: سار فذهب، وقال قتادة وأبو العالية: جاء وأقبل، وروي عن إبراهيم ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ قال: إذا استوى، وقال عكرمة والكلبي ومجاهد ومحمد بن كعب في قوله ﴿وَاللَّيْلِ﴾: هي ليلة المزدلفة خاصة؛ لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله، وقيل: ليلة القدر؛ لسراية الرحمة فيها، واختصاصها بزيادة الثواب فيها، وقيل: إنه أراد عموم الليل كله.

(١) غريب: رواه البغوي (٧/ ٤٨٣) في تفسيره.

(٢) قراءتان متواترتان: كما في تقريب النشر (ص ١٨٨).

قلت: وهو الأظهر، كما تقدم، والله أعلم، وقرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب: «يسري» بإثبات الياء في الحالين (١)، على الأصل؛ لأنها ليست بمجزومة، فنبتت فيها الياء، وقرأ نافع وأبو عمرو بإثباتها في الوصل، ويحذفها في الوقف، «وروي عن الكسائي، قال أبو عبيد: كان الكسائي يقول مرة بإثبات الياء في الوصل، ويحذفها (٢) في الوقف اتباعاً للمصحف، ثم رجع إلى حذف الياء في الحالين جميعاً؛ لأنه رأس آية، وهي قراءة أهل الشام والكوفة، واختيار أبي عبيد، اتباعاً للخط؛ لأنها وقعت في المصحف بغير ياء، قال الخليل: تسقط الياء منها اتفاقاً لرؤوس الآي، قال الفراء: قد تحذف العرب الياء، وتكتفي بكسر ما قبلها، وأنشد بعضهم:

كفك كَفُّ ما تليقُ درهماً جوداً وأخرى تعط بالسيفِ الدماً

يقال: فلان ما يليق درهماً من جوده؛ أي: ما يسكه، ولا يلصق به، وقال المورج: سألت الأخفش عن العلة في إسقاط الياء من ﴿يسر﴾ فقال: لا أجيبك حتى تبيت على باب داري سنة، فبت على باب داره سنة؛ فقال: الليل لا يسري وإنما يسرى فيه؛ فهو مصروف، وكل ما صرفته عن جهته بخسته من إعرابه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وما كانت أمك بغياً﴾ [مریم: ٢٨] لم يقل بغية، لأنه صرفها عن بغية، الزمخشري: وياء «يسري» تحذف في الدرج، اكتفاء عنها بالكسرة، وأما في الوقف فتحذف مع الكسرة، وهذه الأسماء كلها مجرورة بالقسم، والجواب محذوف، وهو ليعذب؛ يدل عليه قوله تعالى ﴿ألم تر كيف فعل ربك﴾ إلى قوله تعالى ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾ [الفجر: ١٣] وقال ابن الأنباري هو ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ [الفجر: ١٤] وقال مقاتل: ﴿هل﴾ هنا في موضع إن؛ تقديره: إن في ذلك قصما لذي حجر، ف﴿هل﴾ على هذا في موضع جواب القسم، وقيل: هل على بابها من الاستفهام الذي معناه التقرير؛ كقولك: ألم أنعم عليك؛ إذا كنت قد أنعمت، وقيل: المراد بذلك التأكيد لما أقسم به وأقسم عليه، والمعنى: بل في ذلك مقنع لذي حجر، والجواب على هذا ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ [الفجر: ١٤] أو مضمرة محذوف.

قوله تعالى: ﴿لذي حجر﴾ أي: الذي لب وعقل، قال الشاعر:

وكيف يرجى أن تتوب وإنما يرجى من الفتيان من كان ذا حجر

كذا قال عامة المفسرين؛ إلا أن أبا مالك قال ﴿لذي حجر﴾: لذي ستر من الناس، وقال الحسن: لذي حلم، قال الفراء: الكل يرجع إلى معنى واحد: لذي حجر، ولذي عقل، ولذي حلم (٣)، ولذي ستر؛ الكل بمعنى العقل، وأصل الحجر: المنع، يقال لمن ملك نفسه ومنعها: إنه لذو حجر؛ ومنه سمي الحجر، لامتناعه بصلايته؛ ومنه حجر الحاكم على فلان، أي: منعه وضيطة عن التصرف؛ ولذلك سميت الحجرة حجراً، لامتناع ما فيها بها، وقال الفراء: العرب تقول: إنه لذو حجر؛ إذا كان قاهراً لنفسه، ضابطاً لها؛ كأنه أخذ من حجرت على الرجل (٤).

(١) (٢) قراءتان متواترتان: كما في تقريب النشر (ص ١٨٨).

(٣) صحیح إلى الحسن: الطبري (٣٠/ ١٨٧) في تفسيره.

(٤) انظر: معاني القرآن (٣/ ٢٦٠) للفراء.

## ﴿الْمَرْكَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ﴿إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ﴿١﴾

قوله تعالى ﴿الْمَرْكَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أي: مالكك وخالقك، ﴿بِعَادٍ﴾ قراءة العامة ﴿بِعَادٍ﴾ منونا، وقرأ الحسن وأبو العالية: «بعاد إرم» مضافا، فمن لم يصف جعل ﴿إِرمَ﴾ اسمه، ولم يصرفه؛ لأنه جعل عادا اسم أبيهم، وإرم اسم القبيلة؛ وجعله بدلا منه، أو عطف بيان، ومن قرأه بالإضافة ولم يصرفه جعله اسم أمهم، أو اسم بلدتهم، وتقديره: بعاد أهل إرم، كقوله ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] ولم تنصرف - قبيلة كانت أو أرضا - للتعريف والتأنيث، وقراءة العامة ﴿إِرمَ﴾ بكسر الهمزة، وعن الحسن أيضاً: «أرَمَ» مفتوحتين، وقرئ «بعاد إرم» بسكون الراء، على التخفيف؛ كما قرئ ﴿بِوَرَقِكُمْ﴾ [الكهف: ١٩]، وقرئ: ﴿بِعَادٍ﴾ ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ بإضافة ﴿إِرمَ﴾ إلى ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾، والإرم: العلم، أي: بعاد أهل «أعلام ذات العباد»، وقرئ ﴿بِعَادٍ﴾ ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي: جعل الله ذات العماد رميماً، وقرأ مجاهد والضحاك وقتادة: «أرَمَ» بفتح الهمزة، قال مجاهد: من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالأرام، التي هي الأعلام <sup>(١)</sup>، واحدها: أرم، وفي الكلام تقديم وتأخير؛ أي: والفجر وكذا وكذا إن ربك لبالمصاد ألم تر، أي: ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد، وهذه الرؤية رؤية القلب، والخطاب للنبي ﷺ والمراد عام، وكان أمر عاد وثمود عندهم مشهورا؛ إذ كانوا في بلاد العرب، وحجر ثمود موجود اليوم، وأمر فرعون كانوا يسمعون من جيرانهم من أهل الكتاب، واستفاضت به الأخبار، وبلاد فرعون متصلة بأرض العرب، وقد تقدم هذا المعنى في سورة «البروج» وغيرها ﴿بِعَادٍ﴾ أي: بقوم عاد، فروى شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المصراع من حجارة، ولو اجتمع عليه خمسمائة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يقلوه، وإن كان أحدهم ليدخل قدمه في الأرض فتدخل فيها.

﴿إِرمَ﴾ قيل هو سام بن نوح؛ قاله ابن إسحاق، وروى عطاء عن ابن عباس - وحكى عن ابن إسحاق أيضا - قال: عاد بن إرم، فيأرم على هذا أبو عاد، وعاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وعلى القول الأول: هو اسم جد عاد، قال ابن إسحاق: كان سام بن نوح له أولاد، منهم إرم ابن سام، وأرفخشذ بن سام، فمن ولد إرم بن سام العمالقة والفراعنة والجابرة والملوك الطغاة والعصاة، وقال مجاهد: ﴿إِرمَ﴾ أمة من الأمم <sup>(٢)</sup>، وعنه أيضا: أن معنى إرم: القديمة، ورواه ابن أبي نجيح، وعن مجاهد أيضا أن معناها القوية، وقال قتادة: هي قبيلة من عاد <sup>(٣)</sup>، وقيل: هما عادان، فالأولى هي إرم؛ قال الله عز وجل ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٠] فقيل لعقب عاد بن عوص ابن إرم بن سام بن نوح: عاد؛ كما يقال لبني هاشم: هاشم، ثم قيل للأولين منهم: عاد الأولى، وإرم: تسمية لهم باسم جددهم، ولم بعدهم: عاد الأخيرة، قال ابن الرقيات:

(١) قال السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٥٨٣) هذا التفسير على قراءة شاذة: «أرَمَ» بفتح الهمزة وتشديد الراء على أنه فعل ماض، وذات بفتح التاء مفعوله.

(٢) ضعيف إليه: الطبري (٣٠/ ١٨٨) في تفسيره.

(٣) صحيح إلى قتادة: الطبري (٣٠/ ١٨٨) في تفسيره.

مَجْدًا تَلِيدًا بَنَاهُ أَوْلَهُمْ أَدْرَكَ عَادًا وَقَبْلَهُ إِرْمًا

وقال معمر ﴿إِرم﴾: إليه مجمع عاد وثمود، وكان يقال: عاد إرم، وعاد ثمود، وكانت القبائل تنتسب إلى إرم، ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء: كان الرجل منهم طوله خمسمائة ذراع، والقصير منهم طوله ثلاثمائة ذراع بذراع نفسه، وروي عن ابن عباس أيضا أن طول الرجل منهم كان سبعين ذراعا: ابن العربي: وهو باطل (١) لأن في الصحيح: «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعا في الهواء، فلم يزل الخلق ينقص إلى الآن» (٢)، وزعم قتادة: أن طول الرجل منهم اثنا عشر ذراعا (٣)، قال أبو عبيدة ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ذات الطول، يقال: رجل معمد إذا كان طويلًا، ونحوه عن ابن عباس (٤) ومجاهد (٥)، وعن قتادة أيضا: كانوا عمادا لقومهم؛ يقال: فلان عميد القوم وعمودهم: أي: سيدهم، وعنه أيضًا: قيل لهم ذلك، لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للانتجاع، وكانوا أهل خيام وأعمدة، ينتجعون الغيوث، ويطلبون الكلاء، ثم يرجعون إلى منازلهم (٦)، وقيل: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي: ذات الأبنية المرفوعة على العمد، وكانوا ينصبون الأعمدة، فيبنون عليها القصور، قال ابن زيد: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ يعني إحكام البنيان بالعمد، وفي «الصحاح»: والعماد: الأبنية الرفيعة، تذكر وتؤنث، قال عمرو بن كلثوم:

ونحنُ إذا عمادُ الحي خرت على الأحفاضِ تمنعُ منَ يلينا (٧)

والواحدة عمادة، وفلان طويل العماد: إذا كان منزله معلما لزياره، والأحفاض: جمع حفص - بالتحريك - وهو متاع البيت إذا هين ليحمل؛ أي: خرت على المتاع، ويروى: عن الأحفاض، أي: خرت عن الإبل التي تحمل خريتي البيت، وقال الضحاك: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ذات القوة والشدة (٨)، مأخوذ من قوة الأعمدة؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مَنَاقِبَةً﴾ [نصحت: ١٥] وروى عوف عن خالد الربيعي: ﴿إِرم ذاتِ العِمَادِ﴾ قال: هي دمشق (٩)، وهو قول عكرمة وسعيد المقبري (١٠)، رواه ابن وهب وأشهب عن مالك، وقال محمد بن كعب القرظي: هي الإسكندرية (١١).

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ الضمير في ﴿مِثْلُهَا﴾ يرجع إلى القبيلة، أي: لم يخلق

(١) نعم هو باطل: أحكام القرآن (٤/ ١٩٣٠) لابن العربي المالكي .

(٢) متفق عليه: قطعة من حديث البخاري (٣٣٢٦) في الأنبياء، ومسلم (٢٨٤١) في الجنة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه، والبخاري (٦٢٢٧) في الاستئذان .

(٣) هذا مجرد زعم وإن صحَّ السند. انظر: الطبري (٣٠/ ١٩٠) في التفسير وهي مبالغة واضحة .

(٤، ٥) ضعيفان: الطبري (٣٠/ ١٩٠) في تفسيره .

(٦) صحيح إليه: الطبري (٣٠/ ١٩٠) في تفسيره .

(٧) صحيح إليه: الطبري (٣٠/ ١٩٠) في تفسيره .

(٨) حسن إليه: السابق نفسه .

(٩) عزاه السيوطي لعبد بن حميد كما في الدر المنثور (٦/ ٥٨٣) .

قلت: ولا يصح .

(١٠، ١١) كذا في الدر المنثور (٦/ ٥٨٣) وعزا هذه الآثار لعبد بن حميد، وابن عساكر .

مثل القبيلة في البلاد: قوة وشدة، وعظم أجساد، وطول قامه؛ عن الحسن وغيره، وفي حرف عبدالله «التي لم يخلق مثلهم في البلاد»<sup>(١)</sup>، وقيل: يرجع للمدينة، والأول أظهر، وعليه الأكثر، حسب ما ذكرناه، ومن جعل «إرم» مدينة قدر حذفها؛ المعنى: كيف فعل ربك بمدينة عاد إرم، أو بعد صاحبه إرم، وإرم على هذا: مؤنثة معرفة [فلذلك لم تنصرف]، واختار ابن العربي<sup>(٢)</sup>: أنها دمشق، لأنه ليس في البلاد مثلها، ثم أخذ ينعتها بكثرة مياهها وخيراتها، ثم قال: وإن في الإسكندرية لعجائب، لو لم يكن إلا المنارة، فإنها مبنية الظاهر والباطن على العمدة، ولكن لها أمثال، فأما دمشق فلا مثل لها، وقد روى معن عن مالك أن كتابا وجد بالإسكندرية، فلم يدر ما هو؟ فإذا فيه: أنا شداد بن عاد، الذي رفع العماد، بنيتها حين لا شيب ولأ موت، قال مالك: إن كان لتمر بهم مائة سنة لا يرون فيها جنازة، وذكر عن ثور بن زيد<sup>(٣)</sup> أنه قال: أنا شداد بن عاد، وأنا رفعت العماد، وأنا الذي شددت بذراعي بطن الوادي، وأنا الذي كنتز كنتزاً على سبعة أذرع، لا يخرج إلا أمة محمد ﷺ، وروي أنه كان لعاد ابنان: شداد وشديد؛ فملكا وقهرا، ثم مات شديد، وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا، ودانت له ملوكها؛ فسمع بذكر الجنة، فقال: أبني مثلها، فبنى إرم في بعض صحاري عدن في ثلاثمائة سنة، وكان عمره تسعمائة سنة، وهي مدينة عظيمة، قصورها من الذهب والفضة، وأساطينها<sup>(٤)</sup> من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة<sup>(٥)</sup>، ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا، وعن عبدالله بن قلابة: أنه خرج في طلب إبل له، فوقع عليها، فحمل ما قدر عليه مما ثم، وبلغ خبره معاوية فاستحضره، فقص عليه، فبعث إلى كعب فسأله، فقال: هي إرم ذات العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك، أحمر أشقر قصير، على حاجبه خال، وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له؛ ثم التفت فأبصر ابن قلابة، وقال: هذا والله ذلك الرجل، وقيل: أي: لم يخلق مثل أنبية عاد المعروفة بالعمد، فالكنية للعماد، والعماد على هذا: جمع عمد، وقيل: الإرم: الهلاك؛ يقال: أرم بنو فلان؛ أي: هلكوا؛ وقاله ابن عباس، وقرأ الضحاك: «أرَمَّ ذات العماد»<sup>(٦)</sup>؛ أي: أهلكتهم، فجعلهم رميماً.

### ﴿وَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾

ثمود: هم قوم صالح، و﴿جَاءُوا﴾: قطعوا، ومنه: فلان يجوب البلاد، أي: يقطعها، وإنما سمي جيب القميص لأنه جيب؛ أي: قطع، قال الشاعر وكان قد نزل على ابن الزبير بمكة، فكتب له بستين وسقا يأخذها بالكوفة، فقال:

(١) لعلها مجرد قراءة تفسيرية .

(٢) أحكام القرآن (٤ / ١٩٣١) للقاضي ابن العربي المالكي .

(٣) ذكرها ابن أبي حاتم (١٢ / ٣٩٩) في تفسيره .

(٤) الأساطين : ج (أسطوانة) وهي العمود أو السارية - كما في الصحاح .

(٥) المطردة : الجارية اللسان «طرده» .

(٦) سبق تضعيف هذه الرواية .

رَأَحَتْ رَوَاحًا قَلْوَصِي وَهِيَ حَامِدَةٌ      آل الزبير ولم تعدل بهم أحدا  
 راحت بستين وسقا في حقيبتها      ما حملت حملها الأدنى ولا السدا  
 ما إن رأيت قلوصاً قبلها حملت      ستين وسقا ولا جابت به بلدا

أي: قطعت، قال المفسرون: أول من نحت الجبال والصور والرخام: ثمود، فبنوا من المدائن ألفاً وسبعمئة مدينة كلها من الحجارة، ومن الدور والمنازل ألفي ألف وسبعمئة ألف، كلها من الحجارة، وقد قال تعالى ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢]، وكانوا لقوتهم يخرجون الصخور، وينقبون الجبال، ويجعلونها بيوتاً لأنفسهم، ﴿بِالْوَادِ﴾ أي: بوادي القرى؛ قاله محمد بن إسحاق، وروى أبو الأشهب عن أبي نضرة قال: أتى رسول الله ﷺ في غزاة تبوك على وادي ثمود، وهو على فرس أشقر، فقال: «أسرعوا السير، فإنكم في واد ملعون»<sup>(١)</sup>، وقيل: الوادي بين جبال، وكانوا ينقبون في تلك الجبال بيوتاً ودوراً وأحواضاً، وكل منفرج بين جبال أو تلال يكون مسلكتاً للسيل ومنفذا فهو واد.

### ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾

أي: الجنود والعساكر والجموع والجيوش التي تشد ملكه؛ قاله ابن عباس، وقيل: كان يعذب الناس بالأوتاد، ويشدهم بها إلى أن يموتوا؛ تجبراً منه وعتواً، وهكذا فعل بامرأته آسية وماشطة ابنته؛ حسب ما تقدم في آخر سورة «التحریم»، وقال عبد الرحمن بن زيد: كانت له صخرة ترفع بالبكرات، ثم يؤخذ الإنسان فتوتد له أوتاد الحديد، ثم يرسل تلك الصخرة عليه فتشده، وقد مضى في سورة «ص» من ذكر أوتاده ما فيه كفاية، والحمد لله.

### ﴿ الَّذِينَ طَفَّؤْا فِي الْبِلَادِ ﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَفَّؤْا فِي الْبِلَادِ﴾ يعني: عاداً وثموداً وفرعون ﴿طَفَّؤْا﴾ أي: تمردوا وعتوا وتجاوزوا القدر في الظلم والعدوان، ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ أي: الجور والأذى، و﴿الَّذِينَ طَفَّؤْا﴾ أحسن الوجوه فيه أن يكون في محل النصب على الدم، ويجوز أن يكون مرفوعاً على: هم الذين طفَّؤوا، أو مسجوراً على وصف المذكورين: عاد، وثمود، وفرعون، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾ أي: أفرغ عليهم وألقى؛ يقال: صب على فلان خلعة، أي: ألقاها عليه، وقال النابغة:

فَصَبَّ عَلَيْهِ اللَّهُ أَحْسَنَ صَنْعِهِ      وكان له بين البرية ناصرا

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: نصيب عذاب، ويقال: شدته؛ لأن السوط كان عندهم نهاية ما يعذب به،

قال الشاعر:

ألم تر أن الله أظهر دينه      وصَبَّ على الكفار سَوْطَ عَذَابٍ

وقال الفراء: وهي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب، وأصل ذلك: أن السوط

(١) مرسل: أرسله أبو نضرة إلى النبي ﷺ، وهو تابعي، وقال الذهبي (٧/ ٢٨٧) في السير: «هذا مرسل جيد».

قلت: وهو في الجامع الكبير، عن أبي من روية ابن منيع كما في البيان والتعريف للحسيني.

وانظر: المطالب العالية (٣٤٥٨) للحافظ ابن حجر - رحمه الله.

هو: عذابهم الذي يعذبون به، فجرى لكل عذاب؛ إذ كان فيه عندهم غاية العذاب، وقيل: معناه عذاب يخالط اللحم والدم؛ من قولهم: ساطه يسوطه سوطاً أي: خلطه، فهو سائط، فالسوط: خلط الشيء بعضه ببعض؛ ومنه سمي المسواط، وسوطه أي: خلطه، وأكثر ذلك يقال: سوط فلان أمره، قال:

فسطها ذَمِيمُ الرَّأْيِ غير موفِقٍ فَلَسْتُ على تَسْوِيطِهَا بِمَعَانٍ

قال أبو زيد: يقال أموالهم سويطة بينهم؛ أي: مختلطة، حكاه عنه يعقوب، وقال الزجاج: أي: جعل سوطهم الذي ضربهم به العذاب، يقال: ساط دابته يسوطها؛ أي: ضربها بسوطه، وعن عمرو بن عبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال: إن عند الله أسواطاً كثيرة، فأخذهم بسوط منها، وقال قتادة: كل شيء عذب الله تعالى به فهو سوط عذاب (١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾

أي: يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه به؛ قاله الحسن وعكرمة (٢)، وقيل: أي: على طريق العباد لا يفوته أحد، والمرصد والمرصاد: الطريق، وقد مضى في سورة «التوبة» (٣) والحمد لله، فروى الضحاك عن ابن عباس قال: إن على جهنم سبع قناطر، يُسأل الإنسان عند أول قنطرة عن الإيمان، فإن جاء به تاماً جاز إلى القنطرة الثانية، ثم يُسأل عن الصلاة، فإن جاء بها جاز إلى الثالثة، ثم يُسأل عن الزكاة، فإن جاء بها جاز إلى الرابعة، ثم يُسأل عن صيام شهر رمضان، فإن جاء به جاز إلى الخامسة، ثم يُسأل عن الحج والعمرة، فإن جاء بهما جاز إلى السادسة، ثم يُسأل عن صلة الرحم، فإن جاء بها جاز إلى السابعة، ثم يُسأل عن المظالم، وينادي مناد: ألا من كانت له مظلمة فليأت؛ فيقتصص للناس منه، ويقتصص له من الناس؛ فذلك قوله عز وجل ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (٤)، وقال الثوري: ﴿لَبِالْمِرْصَادِ﴾ يعني جهنم؛ عليها ثلاث قناطر: قنطرة فيها الرحم، وقنطرة فيها الأمانة، وقنطرة فيها الرب تبارك وتعالى (٥).

قلت: أي: حكمه وإرادته وأمره، والله أعلم، وعن ابن عباس، أيضاً ﴿لَبِالْمِرْصَادِ﴾ أي: يسمع ويرى (٦).

قلت: هذا قول حسن؛ يسمع أقوالهم ونجواهم، ويرى أي: يعلم أعمالهم وأسرارهم، فيجازي كلا بعمله، وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربك؟ فقال: بالمرصاد، وعن عمرو بن عبيد أنه قرأ

(١) كذا رواه ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٠٠) في تفسيره.

(٢) رواه الطبري (٣٠٠/ ١٩٤) في تفسيره.

(٣) عند الآية (٥).

(٤) ضعيف: للانقطاع بين الضحاك وابن عباس - رضي الله عنهما، وذكره ابن أبي حاتم مرسلاً، عن أبيغ الكلاعي بسند فيه تدليس الوليد بن مسلم كما في تفسيره (١٢/ ٤٠١).

(٥) ضعيف من طريق الطبري: فيه ابن حميد وهو متهم بالكذب، وانظر: تفسير الطبري (٣٠٠/ ١٩٤).

(٦) كذا في تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٠١).

هذه السورة عند المنصور حتى بلغ هذه الآية، فقال ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِصَادٌ﴾ يا أبا جعفر قال الزمخشري: عرض له في هذا النداء، بأنه بعض من توعد بذلك من الجبابرة؛ فله دره، أي: أسد فراس كان بين يديه؟ يدق الظلمة بإنكاره، ويقصع أهل الأهواء والبدع باحتجاجه.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ يعني الكافر، قال ابن عباس: يريد عتبة بن ربيعة وأبا حذيفة بن المغيرة، وقيل: أمية بن خلف، وقيل: أبي بن خلف، ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ أي: امتحنه واختبره بالنعمة، و﴿مَا﴾: زائدة صلة، ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ بالمال، ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ بما أوسع عليه، ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ فيفرح بذلك ولا يحمده، ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ أي: امتحنه بالفقر واختبره، ﴿فَقَدَرَ﴾ أي: ضيق ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ على مقدار البلغة، ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ أي: أولاني هوانا، وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث، وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته، فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بضاعته وتوفيقه، المؤدي إلى حظ الآخرة، وإن وسع عليه في الدنيا حمده وشكره.

قلت: الآيتان صفة كل كافر، وكثير من المسلمين يظن أن ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله، وربما يقول بجهله: لو لم أستحق هذا لم يعطينه الله، وكذا إن قتر عليه يظن أن ذلك لهوانه على الله، وقراءة العامة ﴿فَقَدَرَ﴾ مخففة الدال، وقرأ ابن عامر مشددا<sup>(١)</sup>، وهما لغتان، والاختيار التخفيف؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧]، قال أبو عمرو: ﴿قَدَرَ﴾ أي: قتر، و﴿قَدَرَ﴾ مشددا: هو أن يعطيه ما يكفيه، ولو فعل به ذلك ما قال: ﴿رَبِّي أَهْنَنِ﴾، وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو «رَبِّي» بفتح الباء في الموضعين<sup>(٢)</sup>، وأسكن الباقون، وأثبت البيهقي وابن محيصة ويعقوب البياض من ﴿أَكْرَمَنِ﴾، و﴿أَهْنَنِ﴾ في الحاليين<sup>(٣)</sup>؛ لأنها اسم فلا تحذف، وأثبتها المدنيون في الوصل دون الوقف<sup>(٤)</sup>، اتباعا للمصحف، وخير أبو عمرو في إثباتها في الوصل أو حذفها؛ لأنها رأس آية، وحذفها في الوقف لحظ المصحف، الباقون بحذفها، لأنها وقعت في الموضعين بغير ياء، والسنة ألا يخالف خط المصحف؛ لأنه إجماع الصحابة.

﴿كَلَّا بَلْ لَّا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٢﴾ وَلَا تَحْتَضِنُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٣﴾ وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٤﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ رد، أي: ليس الأمر كما يظن، فليس الغنى لفضله، ولا الفقر لهوانه، وإنما الفقر والغنى من تقديري وقضائي، وقال الفراء: ﴿كَلَّا﴾ في هذا الموضع بمعنى لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا، ولكن يحمد الله عز وجل على الغنى والفقر، وفي الحديث: «يقول الله عز وجل: كلا إني لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا، ولا أهين من أهنت بقلتها، إنما أكرم من أكرمت

بطاعتي، وأهين من أهنت بمعصيتي» (١).

قوله تعالى: ﴿بَلْ لَأُكْرِمُنَّكَ لِالْبَتِّيمِ﴾ إخبار عن ما كانوا يصنعونه من منع اليتيم الميراث، وأكل ماله إسرافاً وبداراً أن يكبروا، وقرأ أبو عمرو ويعقوب: «يكرمون»، و«يحضون»، و«ياكلون»، و«يحبون» بالياء (٢)، لأنه تقدم ذكر الإنسان، والمراد به الجنس، فعبّر عنه بلفظ الجمع، الباقون بالناء في الأربعة على الخطاب والمواجهة؛ كأنه قال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً، وترك إكرام اليتيم بدفعه عن حقه، وأكل ماله كما ذكرنا، قال مقاتل: نزلت في قدامة بن مظعون وكان يتيماً في حجر أمية بن خلف. ﴿وَلَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي: لا يأمرؤن أهليهم بإطعام مسكين يجيؤهم، وقرأ الكوفيون (ولا تحاضون) بفتح التاء والحاء والالف، أي: يحض بعضهم بعضاً، وأصله تحاضون، فحذف إحدى التاءين لدلالة الكلام عليها، وهو اختيار أبي عبيد، وروي عن إبراهيم والشيزري عن الكسائي والسلمي: «تحاضون» بضم التاء، وهو تفاعلون من الحض، وهو الحث، و«تأكلون الثراث» أي: ميراث اليتامى، وأصله الوراث من ورثت، فأبدلوا الواو تاء؛ كما قالوا في تجاه وتخمة وتكأة وتودة ونحو ذلك، وقد تقدم، «أكلألمأ» أي: شديداً؛ قاله السدي، قيل «لمأ»: جمعاً؛ من قولهم: لمت الطعام لما إذا أكلته جمعاً؛ قاله الحسن وأبو عبيدة، وأصل اللم في كلام العرب: الجمع؛ يقال: لمت الشيء ألمه لما: إذا جمعته، ومنه يقال: لَمَّ اللهُ شَعْتَهُ، أي: جمع ما تفرق من أموره، قال النابغة:

ولستُ بمسْتَبِقِ أَخَا لَا تَلْمَهُ عَلَى شَعْتِ أَيِّ الرَّجَالِ الْمَهْذَبِ

ومنه قولهم: إن دارك لَمُومَةٌ، أي: تلم الناس وتربهم وتجمعهم، وقال المرناق الطائي يمدح علقمة بن سيف:

لَأَحْبَبَنِي حُبَّ الصَّبِيِّ وَلَمَنِّي لَمْ الْهُدْيَ إِلَى الْكَرِيمِ الْمَاجِدِ

وقال الليث: اللم الجمع الشديد؛ ومنه حجر ملموم، وكتيبة ملمومة، فالأكل يلم الشريد، فيجمعه لقمًا ثم يأكله، وقال مجاهد: يسفه سفا (٣)، وقال الحسن: يأكل نصيبه ونصيب غيره (٤)، قال الخطيب:

إذا كان لما يتبع الذم ربه فلا قدس الرحمن تلك الطواحنا

يعني أنهم يجمعون في أكلهم بين نصيبهم ونصيب غيرهم، وقال ابن زيد: هو أنه إذا أكل ماله ألم بمال غيره فأكله، ولا يفكر: أكل من خبيث أو طيب، قال: وكان أهل الشرك لا يورثون النساء ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثهم مع ميراثهم، وتراثهم مع تراثهم، وقيل: يأكلون ما جمعه الميت من الظلمة وهو عالم بذلك، فيلتم في الأكل بين حرامه وحلاله، ويجوز أن يذم الوارث الذي ظفر بالمال

(١) ليس هذا حديثاً إنما هو من رواية صحيحة إلى قتادة كما عند الطبري (٢٠٠ / ١٩٥) في تفسيره والعجيب ممن قال:

لم أجده، وآخر نسبة إلى الإمام مالك حديث رقم (٦) في كتاب الصدقة !!

(٢) القراءة بالياء متواترة: الإقناع (٢ / ٨١٠).

(٣) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٣٠ / ١٩٧) في تفسيره.

(٤) صحيح إلى الحسن: الطبري (٣٠ / ١٩٧) في تفسيره.

سهلاً، مهلاً، من غير أن يعرق فيه جبينه، فيسرف في إنفاقه، ويأكله أكلاً واسعاً، جامعاً بين المشتبهات من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعل الوراثة البطالون.

قوله تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أي: كثيراً، حلاله وحرامه، والجم الكثير، يقال: جم الشيء يجم جمومًا، فهو جم وجام، ومنه جم الماء في الخوض: إذا اجتمع وكثر، وقال الشاعر:  
 إن تُغْفِرَ اللَّهُمَّ تُغْفِرْ جَمًّا      وأيُّ عبد لك لا الما  
 والجمَّة: المكان الذي يجتمع فيه ماؤه، والجموم: البئر الكثير الماء، والجمومُ: المصدر؛ يقال: جم الماء يجم جموماً: إذا كثر في البئر واجتمع، بعد ما استقي ما فيها.

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾

قوله تعالى: ﴿ كَلَّا ﴾ أي: ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر، فهو رد لانكسابهم على الدنيا، وجمعهم لها؛ فإن من فعل ذلك يتدم يوم تدك الأرض، ولا ينفع الندم، والدك: الكسر والدق؛ وقد تقدم، أي: زلزلت الأرض، وحركت تحريكاً بعد تحريك، وقال الزجاج: أي: زلزلت فدك بعضها بعضاً، وقال الميود: أي: ألصقت وذهب ارتفاعها، يقال: ناقة دكاء، أي: لا سنام لها، والجمع دُكٌّ، وقد مضى في سورة «الأعراف» و«الحاقة» القول في هذا، ويقولون: دك الشيء أي: هدم، قال:  
 هل غيرُ غَارٍ دَكٌّ غَارًا فانهدم

﴿ دَكًّا دَكًّا ﴾ أي: مرة بعد مرة؛ زلزلت فكسر بعضها بعضاً؛ فتكسر كل شيء على ظهرها، وقيل: دكت جبالها وأنشازها حتى استوت، وقيل: دكت أي: استوت في الانفراش؛ فذهب دورها وقصورها وجبالها وسائر أبنيتها، ومنه سمي الدكان، لاستوائه في الانفراش، والدك: حط المرتفع من الأرض بالسط، وهو معنى قول ابن مسعود وابن عباس: تمد الأرض مد الأديم<sup>(١)</sup>.

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿﴾

قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ أي: أمره وقضاؤه<sup>(٢)</sup>؛ قاله الحسن، وهو من باب حذف المضاف، وقيل: أي: جاءهم الرب بالآيات العظيمة؛ وهو كقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، أي: بظلال، وقيل: جعل مجيء الآيات مجيئاً له، تفخيماً لشأن تلك الآيات، ومنه قوله تعالى في الحديث: «يا بن آدم، مرضت فلم تعدني، واستسقيتك فلم تسقني، واستطعمتك فلم تطعمني<sup>(٣)</sup>»، وقيل «وجاء ربك» أي: زالت الشبه ذلك اليوم، وصارت المعارف ضرورية، كما تزول الشبه والشك عند مجيء الشيء الذي كان يشك فيه، قال أهل الإشارة: ظهرت قدرته واستولت، والله جل ثناؤه لا يوصف بالتحول من مكان إلى مكان، وأنى له التحول والانتقال، ولا مكان له ولا

(١) حسن: وقد سبق.

(٢) بل المجيء هنا على الحقيقة كما يليق بكماله وجلاله سبحانه من غير تأويل ولا تعطيل - كما سبق.

(٣) صحيح: مسلم (٢٥٦٩) في البر والصلة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه.

أوان، ولا يجري عليه وقت ولا زمان؛ لأن في جريان الوقت على الشيء فوت الأوقات، ومن فاته شيء فهو عاجز.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ﴾ أي: الملائكة، ﴿صَفًا صَفًا﴾ أي: صفوفًا، ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ قال ابن مسعود ومقاتل: تقاد جهنم بسبعين ألف زمام، كل زمام بيد سبعين ألف ملك، لها تعيظ وزفير، حتى تنصب عن يسار العرش<sup>(١)</sup>، وفي صحيح، مسلم عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بهنم، لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»<sup>(٢)</sup>، وقال أبو سعيد الخدري: لما نزلت ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تغير لون رسول الله ﷺ، وعرف في وجهه، حتى اشتد على أصحابه، ثم قال: «أقرأني جبريل ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ الآية، ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾، قال علي رضي الله عنه: قلت يا رسول الله، كيف يجاء بها؟ قال: «يؤتى بها تقاد بسبعين ألف زمام، يقود بكل زمام سبعون ألف ملك، فتشرد شرده لو تركت لأحرقت أهل الجمع ثم تعرض لي جهنم فتقول: مالي ولك يا محمد، إن الله قد حرم لحكم علي» فلا يبقى أحد إلا قال نفسي نفسي إلا محمد ﷺ فإنه يقول: رب أمتي رب أمتي<sup>(٣)</sup>.

قوله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ أي: يتعظ ويتوب، وهو الكافر، أو من همته معظم الدنيا، ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ أي: ومن أين له الاتعاظ والتوبة وقد فرط فيها في الدنيا، ويقال: أي: ومن أين له منفعة الذكرى، فلا بد من تقدير حذف المضاف، وإلا فين ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ﴾ وبين ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ تناف، قاله الزمخشري.

### ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾

أي: في حياتي، فاللام بمعنى في، وقيل: أي: قدمت عملاً صالحاً لحياتي، أي: حياة لا موت فيها، وقيل: حياة أهل النار ليست هنيئة، فكأنهم لا حياة لهم؛ فالمعنى: يا ليتني قدمت من الخير لنجاتي من النار، فأكون فيمن له حياة هنيئة.

### ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ۗ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا﴾

قوله تعالى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ أي: لا يعذب كعذاب الله أحد، ولا يوثق كوثاقه أحد، والكناية ترجع إلى الله تعالى، وهو قول ابن عباس والحسن، وقرأ الكسائي «لا يُعَذِّبُ»، «ولا يُوثِقُ» بفتح الذال والثاء<sup>(٤)</sup>، أي: لا يعذب أحد في الدنيا كعذاب الله الكافر يومئذ، ولا يوثق كما يوثق الكافر، والمراد إبليس؛ لأن الدليل قام على أنه أشد الناس عذاباً، لأجل إجرامه؛ فأطلق الكلام لأجل ما صحبه من التفسير، وقيل: إنه أمية بن خلف؛ حكاها الفراء، يعني أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد؛ لتناهيه في كفره وعناده، وقيل: أي: لا يعذب

(١) صحیحان : وقد سبقا .

(٢) عزاه السيوطي (٦ / ٥٨٧) في الدر المنثور لابن مردويه عن أبي سعيد ، وعن علي أيضاً ولا أراه إلا ضعيفاً .

(٤) هي قراءة سبعة متواترة : كما في الإقناع (٢ / ٨١٠) ، وتقريب النشر (ص١٨٧) .

مكانه أحد، فلا يؤخذ منه فداء، والعذاب بمعنى التعذيب، والوثاق بمعنى الإيثاق، ومنه قول الشاعر:

وبعد عطائك المائة الرتاعا

وقيل: لا يعذب أحد ليس بكافر عذاب الكافر، واختار أبو عبيد وأبو حاتم فتح الذال والثاء، وتكون الهاء ضمير الكافر؛ لأن ذلك معروف؛ أنه لا يعذب أحد كعذاب الله، وقد روى أبو قلابة عن النبي ﷺ أنه قرأ بفتح الذال والثاء<sup>(١)</sup>، وروى أن أبا عمرو رجع إلى قراءة النبي ﷺ، وقال أبو علي: يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة؛ أي: لا يعذب أحد أحدًا مثل تعذيب هذا الكافر؛ فتكون الهاء للكافر، والمراد بـ ﴿أَحَدٌ﴾ الملائكة الذين يتولون تعذيب أهل النار.

﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٥٦﴾ أَرْجِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿٥٧﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٥٨﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ لما ذكر حال من كانت همته الدنيا فاتهم الله في إغوائه، وإفقاره، ذكر حال من اطمأنت نفسه إلى الله تعالى، فسلم لأمره، واتكل عليه، وقيل: هو من قول الملائكة لأولياء الله عز وجل، والنفس المطمئنة: الساكنة الموقنة؛ أيقنت أن الله ربه، فأخبت لذلك؛ قاله مجاهد وغيره<sup>(٢)</sup>، وقال ابن عباس: أي: المطمئنة بثواب الله، وعنه: المؤمنة<sup>(٣)</sup>، وقال الحسن: المؤمنة الموقنة<sup>(٤)</sup>، وعن مجاهد أيضا: الراضية بقضاء الله، التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها<sup>(٥)</sup>، وقال مقاتل: الآمنة من عذاب الله، وفي حرف أبي ابن كعب «يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة»<sup>(٦)</sup>، وقيل: التي عملت على يقين بما وعد الله في كتابه، وقال ابن كيسان: المطمئنة هنا: المخلصة، وقال ابن عطاء: العارفة التي لا تبصر عنه طرفة عين، وقيل: المطمئنة بذكر الله تعالى؛ بيانه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقيل: المطمئنة بالإيمان، المصدقة بالبعث والثواب، وقال ابن زيد: المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت، وعند البعث، ويوم الجمع، وروى عبدالله بن بريدة عن أبيه قان: يعني نفس حمزة، والصحيح أنها عامة في كل نفس مؤمن مخلص طائع، قال الحسن البصري: إن الله تعالى إذا أراد أن يقبض روح عبده المؤمن، اطمأنت النفس إلى الله تعالى، واطمأن الله إليها<sup>(٧)</sup>، وقال عمرو بن العاص: إذا توفي المؤمن أرسل الله إليه ملكين، وأرسل معهما تحفة من الجنة، فيقولان لها: اخرجي أيتها النفس

- (١) كذا عند الحاكم في المستدرک (٦٦٣٥)، عن مالك بن الحويرث وفي عون المعبود وقال أبو الطيب: وجهالة الصحابي لا تقدر في الحديث وإن كان الألباني قد ضعفه (٣٩٩٧) في سنن أبي داود وسكت المنذري عنه في الترغيب، ونقل السيوطي (٦/ ٥٨٨) في الدر المنثور تصحيح الحاكم له.
- (٢) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٣٠/ ٢٠٤) في تفسيره من عدة طرق.
- (٣) منقطع: بين علي بن أبي طلحة وابن عباس الطبري (٣٠/ ٢٠٤) في تفسيره.
- (٤) صحيح إلى الحسن وقتادة كما في تفسير الطبري (٣٠/ ٢٠٤).
- (٥) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٣٠/ ٢٠٤) في تفسيره.
- (٦) قراءة تفسيرية وإلا فهي شاذة، وانظر الكشاف (٤/ ٢١٢) للزمخشري.
- (٧) رواه ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٠٦) في تفسيره.

المطمئنة راضية مرضيةً ومرضيًا عنك، اخرجني إلى روح وريحان، ورب راض غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك وجد أحد من أنفه على ظهر الأرض، وذكر الحديث، وقال سعيد بن جبير: قرأ رجلٌ عند النبي ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ﴾، فقال أبو بكر: ما أحسن هذا يا رسول الله فقال النبي ﷺ: «إن الملك سيقولها لك يا أبا بكر عند الموت»<sup>(١)</sup>، وقال سعيد بن جبير: مات ابن عباس بالطائف، فجاء طائر لم ير على خلقته طائر قط، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجاً منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر - لا يدري من تلاها - ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ﴾<sup>(٢٧)</sup> ارجعي إلى ربك راضيةً مُرضيةً<sup>(٢٨)</sup>، وروى الضحاك أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه حين وقف بئر رومة<sup>(٣)</sup>، وقيل: نزلت في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة، وجعلوا وجهه إلى المدينة؛ فحول الله وجهه نحو القبلة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى صاحبك وجسدك؛ قاله ابن عباس وعكرمة وعطاء، واختاره الطبري؛ ودليله قراءة ابن عباس: «فادخلي في عبيدي» على التوحيد، فيأمر الله تعالى الأرواح غداً أن ترجع إلى الأجساد، وقرأ ابن مسعود: «في جسد عبيدي»، وقال الحسن: ارجعي إلى ثواب ربك وكرامته، وقال أبو صالح: المعنى: ارجعي إلى الله، وهذا عند الموت، ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي: في أجساد عبادي؛ دليله قراءة ابن عباس وابن مسعود، قال ابن عباس: هذا يوم القيامة؛ وقاله الضحاك، والجمهور على أن الجنة هي دار الخلود التي هي مسكن الأبرار، ودار الصالحين والأخيار، ومعنى ﴿فِي عِبَادِي﴾ أي: في الصالحين من عبادي؛ كما قال ﴿لِنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [المنكوت: ٩]، وقال الأخفش ﴿فِي عِبَادِي﴾ أي: في حزبي؛ والمعنى واحد، أي: انتظمي في سلكهم، ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ معهم.

(١) رواه ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٠٦) في تفسيره والطبري (٣٠/ ٢٠٥) في تفسيره مرسلًا عن سعيد بن جبير وقال ابن كثير: مرسل حسن (٨/ ٣١٢).

(٢) صحيح: ابن كثير (٨/ ٣١٢) في تفسيره، وابن أبي حاتم (١٢/ ٤٠٩) في تفسيره.

(٣) ضعيف جداً: ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٠٥) في تفسيره، وفي لباب السقول (ص ٤٥٥) للسيوطي نقل أن في الإسناد جويراً وهو مالك، فالإسناد جمع بين ضعف جوير، وانقطاع بين الضحاك وابن عباس - رضي الله عنهما